ثقافات الشعوب





الخفّ الذهبي

حكايات شعبية من صربيا

جمع: شيدوميل مياتوفيتش

ترجمة: ثائر ديب

الخُفّ الذّهبي

حكايات شعبية من صربيا

جمع:

شيدوميل مياتوفيتش

ترجمة:

ثائر ديب





الخُفّ الذّهبي

حكايات شعبية من صربيا

فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

الخُفّ الذهبيّ: حكايات شعبية من صربيا.

الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

GR259.M4512 2010
Mijatovich, Elodie Lawton, 1825-1908.
[Serbian folk-lore]

الخُفّ الذَهبي: حكايات شعبية من صربيا/ جمع شيدوميل مياتوفيتش؛ ترجمة ثائر ديب.- ط.1.-
أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010.
168ص؛ 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 1-363-01-9948-978
ترجمة كتاب: Serbian folk-lore popular tales
1 - القصص الشعبية الصربية. 2 - الحكايات الصربية. أ- ديب، ثائر.

مراجعة وتحرير: سامر أبو هواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله التتان

info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+



www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ .
فاكس: 059 6336 2 971+

المحتويات

هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها ، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها - مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة - تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في أقاصي الغرب، أو

شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه - وإن بلغة أخرى - جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

تقديم

لم يُعتَرَف، إلا في السنوات القليلة الأخيرة وحسب، ذلك الاعتراف الصريح بأهمية الفلكلور، والسِّيَر البطولية والحكايات والمُسْتَطْرَفَات وضروب المغالاة الشعبية التي تناقَلَتْهَا أجيالٌ من العمّال والفلاحين والشبيبة في أمّة من الأمم. أمّا الآن فبات يُقَرُّ عموماً أنَّ لهذا النوع من الأدب، الجدير بصفة الشعبي أكثر من أي أدبٍ آخر، قيمةً تتعدّى التسلية العابرة التي يمكن أن تقدّمها الحكايات ذاتها، وأنَّ له مكانةً رفيعةً إلى جانب المواد الأخرى الأشدّ رصانة، فضلاً عن مساهمته المُعْتَبَرَة في تقرير ما يتوصّل إليه المؤرّخ والإثنولوجي من استخلاصات ونتائج. وإنه لمن حُسْنِ الطالع أن يُعْتَرَف بما لهذه «الحكايات والخرافات» من نَفْعٍ، وإلا لكانت النزعة النفعيّة عند المربّين المُحْدَثين تطأ بقدميها شذرات «الزمن القديم» هذه، ولا تترك لأطفالنا أيّ بديل سوى «حشوهم بالجغرافيا والتاريخ الطبيعي»[1]. وما هذه المجموعة من الحكايات الشعبية الصربية، التي تُرجِمَت إلى الإنجليزية وتُنْشَر

(1) تشارلز لام، في رسالة إلى كولردج، تشرين الأول، 1802.

هنا، سوى مساهمة أخرى تُضَاف إلى معرفتنا بمثل هذا الأدب، الذي لعلّه أن يكون أَجَلَّ الآداب الدنيوية التي وصلتنا.

ولقد تولّيتُ أَمْرَ تحرير هذه الحكايات، نزولاً عند رغبة السيدة التي اختارتها وقامت بترجمتها. فحافظتُ ما أمكنني، على حرفيّة روايتها، واقتصرتُ على إضافة بضع ملاحظات إلى النصّ وبعض التصويبات العارضة على صعيد الأسلوب، مما اقتضته عادة مة في أن تفكّر وتكتب بلغة أخرى. وكانت الحكايات التي يضمها هذا الكتاب قد اختيرت من مجموعتين من الفلكلور الصربي، إذ اختير القسم الأكبر من مجموعة «الأشعار الشعبية الصربية» الشهيرة التي نشرها فوك ستيفانوفيتش كراجيتش[1] في فيينا، عام 1853، في حين اختير الباقي من «الأشعار الشعبية البوسنية»، التي جمعتها «جمعية البوسنة الفتاة»، وطُبع الجزء الأول منها في سيسّيك، في كرواتيا، عام 1870. وكانت مجموعة فوك ستيفانوفيتش كراجيتش قد تُرجِمَت إلى الألمانية

(1) ليس من المبالغة القول إنّ فوك ستيفانوفيتش كراجيتش (1787– 1864) هو الأب الروحي للغة الصربية وصانعها وواضع أسسها الحديثة ومصلح قواعد كتابتها. وكان، علاوةً على ذلك، أفضل جامع وعالم بالشعر الشعبي، وعلى قدر كبير من العلم بالأنثروبولوجيا الوصفية والتاريخ، كما كان ناقداً أدبياً متمرّساً في فن الجدل والمناظرة ومن أكثر الأدباء في صربيا تأليفاً وتأثيراً في زمانه، حيث يُعَدُّ على نحوٍ ما خالق القومية الصربية بمعناها الحديث. (م)

من قبل ابنته فيلهلمين، وطبعت في برلين، عام 1854 [(1)].
وكان جايكوب غريم، الذي نبّه كراجيتش إلى أهمية جمع تلك الحكايات الأصلية، قد أسهم في هذه الترجمة التي أُهديت إلى الأميرة جوليا، أرملة الأمير الراحل ميشيل أوبرفيتش الثالث، بتصديرٍ قصيرٍ لكنه لافت.

وكان فوك كراجيتش قد جمع قصص مجموعته من شفاه حكواتيّةٍ[(2)] محترفين وفلاحات عجائز في صربيا والهرسك. وثمّة واحدة من هذه الحكايات، مترجمة في كتابنا هذا، تحت عنوان «الكشك العجيب» أو «كشك في السماء»، كان الأمير ميشيل، حاكم صربيا الراحل والمأسوف عليه، قد سمعها، في طفولته، من فم مربيته، فدوّنها وأسهم بها في هذه المجموعة. أمّا المجموعة البوسنية فقد وضعها بعض الطلاب البوسنيين الشباب، الذين كانوا يدرسون اللاهوت في دياكوفو، في كرواتيا.

ولقد أفضى الميل إلى هذه الأنواع من الأدب، في السنوات القليلة الأخـيرة، إلى نشر مجموعاتٍ كثيرة من الحكايات الفلكلورية، والسِّيَر البطولية، والساغات[(3)] التقليدية، من جميع

---

(1) «Volksmärchen der Serben، gesammelt und herausgegeben von Vuk Stephanowitsch Karadschitsch.» Berlin، 1854.
(2) الأصل في العربية «حكاة» لكننا فضلنا اللفظة الشائعة «حكواتية» (م).
(3) الساغا، نوع من السرد النثري الأيسلندي والإسكندنافي القروسطي يحكي عن بطل

البلدان الممتدة من أيسلندا إلى أقصى جنوب إفريقيا وبولينيزيا، مما وفّر متناً ضافياً من هذه الحكايات حتى لمن لا يقرأ بغير الإنجليزية. وفي حين وجّه السيد ثورب[1] والسيد ديزنت[2] اهتمامهما إلى أيسلندا والممالك الإسكندنافية، فإنَّ السيد كامبل قدّم خدمة رفيعة الشأن بمجموعته الضخمة من قصص المرتفعات الغربية[3]. وقد أبـرزت كتب السيد و. هـ. ولسون، والدكتور موير[4]، والكولونيل جيكوب، والسيد كيلي[5]، والآنسة فرير[6] السِّيَر البطولية الهندية، والفلكلور الهندي بوجهٍ عام؛ في حين أبرزت كتاباتُ السيد ترنر، وخاصةً كتب السيِّد سبينس هاردي[7]، التقاليدَ السيلانية. أمّا الفلكلور الروسي والسلوفيني الشمالي فقد أتاحه ونظّمه كتابا السيد رالستون القيّمان عن «أغاني الشعب الروسي» و«الفلكلور الروسي». وكان الدكتور بليك قد جمع بعض الأساطير والحكايات الشعبية لدى القبائل قرب رأس الرجاء

مشهورٍ أو عائلة مشهورة أو عن مآثر الملوك والمحاربين. وقد ظلّ معظم الساغات شفوياً حتى القرن الثاني عشر عندما بدأ تدوينها(م).

(1) «Northern Mythology،» 3 vols.

(2) «Popular Tales from the Norse»

(3) «PopularTalesoftheWestHighlands» 4vols. Edinb. 186062.

(4) «Original Sanskrit Texts on the Origin and History of the People of India، &c»

(5) «Indo–European Traditions»

(6) «Old Deccan Days«

(7) «Manual of Buddhism» and «Legends and Theories of the Buddhists» London. 1866.

الصالح[1]؛ أمّا السيد غريغوري غري فقام بهذه الخدمة الطبية ذاتها وحفظ لنا عينات من الحكايات الفلكلورية لدى شعب نيوزلندا[2]. وكما فتحت البلدان الأجنبية مخازن أدبها الشعبي أمام هذه الضروب من البحث والاستقصاء، فإنّ صناعةً مماثلةً ظهرت في بلادنا وراحت تجمع تقاليدها وفلكلورها. فالأغاني التي جمعها وولتر سكوت في كتابه «أناشيد القوّالين على الحدود»[3]، بالهوامش الشارحة التي أضافها إليها، هي ذخيرة لكلٍّ من مقاطعات شمال إنجلترا ومقاطعات جنوب اسكتلندا على حدٍّ سواء. أمّا السيد رايت والسيد كوكّاين، في كتابيهما، ذلك الذي يتناول «أدب العصور الوسطى»، للسيد الأول، والذي يتناول «الوصفات الطبية في إنجلترا الباكرة»[4]، للسيد الآخر، فقد جمعا فلكلور أسلافنا؛ في حين كَنَزَتْ صفحات بيكر[5]، وتشامبرز[6]، وهون[7]، وهندرسن[8]، وهنت[9]، وسواهم، قدراً كبيراً من الفلكلور المحلي والحكايات المحلية التي لا تزال قائمة

(1) ««Reynard، the Fox، in South Africa»
(2) «Polynesian Mythology and Traditions of New Zealand»
(3) «Border Minstrelsy»
(4) «Leechdoms، wortcunning، and starcraft of early England»
(5) «Folk–Lore of Northamptonshire»
(6) '«The Book of Days »
(7) «Table Book» and «Year Book»
(8) Notes on the Folk–Lore of the Northern Counties of» England and the Borders.»
(9) Drolls of Old Cornwall. 2 vols .»

بيننا، وكنّا قد ورثناها من أسلافنا الآريين، وهي أصداء قصص كانوا قد سمعوها أولاً في موطنهم في آسيا الوسطى.

ولقد مكّنتنا هذه وسواها من المجموعات المماثلة من أن نتتبع الحكاية الفلكلورية في مختلف مراحل نموها، ونقارن بين هذه المراحل، ونلاحظ ما طرأ عليها من تعديلات، تبعاً لديانة الشعب الذي تلقّاها، وجوّ البلدان التي أُدْخِلَت إليها وتجنّست بجنسيتها. ولدينا في صفحات البروفسور ماكس مولر، والسيد بارنغ غولد، والسيد كوكس، محاولات، ناجحة إلى هذا الحدّ أو ذاك، في التعامل مع هذه القصص على نحوٍ علمي، وفي تتبع أصول الحكايات الشعبية والسير البطولية المختلفة التي تُدْرَج تحت اسم الفلكلور وشرح بواعثها.

وما يفضي إليه تفحّصُ هذه المجموعات هو خلاصةٌ مفادها أنَّ عدد الحكايات الفلكلورية الأصلية حقّاً – عداك عن السِّير البطولية التاريخية– هو عدد ضئيل؛ وأنَّ الشعوب، على الرغم من استقرارها على مدى عصور طويلة في بلدان منفصلة جغرافياً، قد حازت من الزمن القديم أدباً شعبياً، لابدَّ من أنّه كان ملكية مشتركة للجنس البشري قبل تفرّقه إلى أمم مختلفة؛ لكنَّ التراكمات الطبيعية، وتقدّم الزمن، فضلاً عن الصبغة المحليّة، وشذرات

الوقائع التاريخية، وتأثير الاعتقاد الديني الشعبي، وفوق ذلك كلّه، مقتضيات الحكواتية المحترفين وألمعيتهم، قد عدّلت تلك الحكايات والسِّير البطولية البدائية أشدّ التعديل، لكي أُضْفِيَ طابع الأصالة على الحكايات الشعبية الراهنة، مع أنَّ مزيداً من التعمّق في الفلكلور، ومزيداً من التوسّع في استقصائه راح الآن يبدد هذا الطابع شيئاً فشيئاً. ولقد اتضح أنَّ العناصر السِّيَرية والتقليدية البدائية قد تضافرت في هذه الحكايات؛ وأنَّ ما من أصالة سوى في هذا التضافر. فهي تشبه قطعةً من عمل فسيفسائي مصنوعةً من مكعبات حجر ملون، ألوانها قليلة العدد في الحقيقة، لكنها تميل لأن تُرَتَّب في مُنَوَّعٍ من الأشكال تبعاً لهوى الفنان.

ويجد القارئ في تذييل كتاب السيد هندرسون، «ملاحظات عن فلكلور مقاطعات إنجلترا الشمالية»، وتحت عنوانٍ ملائم هو «جذور قصصية أساسية»، تصنيفاً مفيداً ومُوحياً للعناصر التي تدخل في تركيب الحكايات الشعبية المختلفة مستعاراً من مقدمة كان فون هاهن قد وضعها لما جمعه من حكايات فلكلورية يونانية وألبانية؛ ومع أنَّ هذا التصنيف قد تكشّف عن نقص بعد الزيادة الكبيرة في عدد هذه القصص مؤخّراً، إلا أنه يكفي لشرح الطريقة التي تُجمَع فيها وتُلصَق شذرات مختارة من قصص شعبية أخرى. أما بحوث فقه اللغة فتبيّن بمزيد من الوضوح كلَّ يوم تلك

الواحديّة الأصلية التي تتّسم بها لغة البشر؛ كما تُظْهِر مجموعات الحكايات السلالية والسِّير البطولية الشعبية أنَّ قدراً كبيراً من الأدب الشعبي حقّاً، خاصةً ذاك الذي تلبّث في أراضٍ لم تغزها الحضارة الحديثة، وفي بقاع منعزلة وسط هذه الحضارة، قد كان ملكية مشتركة، قبل أن يتفرّق البشر أعراقاً، وينقسموا إلى قبائل وأمم؛ الأمر الذي يوفّر دليلاً آخر على وحدة الجنس البشري. ولا يزال بمقدورنا، إلى حدٍّ معين على الأقل، أن نتتبّع أنساب كثير من القصص الشعبية، وأن نرتقي إلى رأس نبعها، أو أن نقطع على الأقل تلك المسافة التي تشير إلى زمن نشوئها، وإلى الأرض التي حُكِيَت فيها أول ما حُكِيَت. وهذا ما يجعلنا على ثقة من أنه لو كانت بعض الحكايات في هذا الكتاب من بنات خيال القوّالين والحكواتية السلافيين لما كانت قد زُوِّقَت بالتماسيح والقواطير[1] والفيلة وحيوانات هندوستان ونباتاتها، مما يعني أنَّ بذرة مثل هذه الحكايات لابدّ من أن تكون قد وُجِدَت قبل أن يتّخذ السلافي موطناً له في أوروبا. ومثل هذه الملحقات هي برهان كافٍ على أنَّ ضفتيّ الدانوب لا يمكن أن تكونا موطن هذه الحكايات الأصلي، ولا بدّ أنها جُلِبَت إلى هناك بواسطة عِرْقٍ هاجر من موطنٍ أبعد إلى الجنوب والشرق.

وفي حين يمكن على هذا النحو أن نبرهن بصورةٍ مُرْضِيةٍ على

(1) جمع قاطور، وهو نوع أميركي من التماسيح مقدّم رأسه أعرض منه في تمساح النيل (م).

أنَّ الموطن الأصلي لهذه الحكايات هو في أراض أخرى غير التي نجدها فيها الآن، فإنَّ من الممكن تتبع نمو الحكاية أو القصة أو السيرة البطولية،أو المُسْتَطْرَف من خلال تفحّص القصص ذاتها. ذلك أنّها غالباً ما تكون ضَرباً من التركيب، أو لصقاً لشذرات على نحو ما نراه في الصخور الكُسَارية[1] والصخور المماثلة ذات الأصل البركاني. فالرغبة في أن يُقَرَّ للمرء بالأصالة -وهذا ضعفٌ بشري شائع- وضرورة تطويل حكايةٍ لكي تستغرق روايتها وقتاً محدداً، والسعي وراء التسلية من خلال تراكيب جديدة، كلُّ ذلك من شأنه أن يدفع إلى نمو هذه القصص نمواً بنيوياً. وهذا ما يتأثّر بضروب الترتيب غير المتوقَّعَة لحوادث قديمة وشهيرة، كما يتأثر بوسيلة التكرار المحض، تلك الوسيلة اليسيرة الفجّة. فمن الحيل الشائعة لدى الحكواتي أن يعيد تفاصيل أحداث وقعت لواحدٍ من شخصيات حكايته، وينسبها إلى كلّ من الأبطال الثلاثة، أو حتى السبعة الذين انطلقوا بحثاً عن المغامرات، فيجعلهم يواجهون الأقدار ذاتها. ومثل هذه الضروب من التكرار تظهر أحياناً ويُستغنى عنها في أحيان أخرى، تبعاً لمقتضيات الوقت، أو براعة السارد. أما الوسيلة الأخرى من وسائل الإضافة إلى القصة الأصلية فهي الحوادث المُسْتَمَدَّة من قصص أخرى، الأمر الذي يتطلّب ممارسة قَدْرٍ كبيرٍ من الألمعية من طرف الحكواتي، ويجعله

---

(1) الصخر الكساري هو الصخر المؤلّف من كسارات صخور أخرى متلاحمة (م).

جديراً بصفة الأصالة نوعاً ما. غير أنَّ الحقيقة تبقى أنَّ المواد التي تُبنى منها هذه القصص هي أقلُّ عدداً من هذه القصص ذاتها، التي كانت على مدى آلاف من السنين مصدر فرح وتسلية، بل وتثقيف في بعض الأحيان، لكلٍّ من الكبير والصغير، والفلاح والأمير، للهوتنتوت[1] الجلف في جنوب إفريقيا، والفقير بليد الحسّ في روسيا، والذكي سريع البديهة في اليونان.

إنّها لمهمة يسيرة نسبياً أن نردّ الحكايات الشعبية المألوفة لدينا إلى البلدان التي حُكيَت فيها في الأصل؛ أو أن نحدّد بصورة تقريبية، على الأقل، مسقط رأسها. والأيسر من ذلك هو أن نفككها، وأن نفصل البذرة الأصلية عن التراكمات التي اجتمعت حولها في سياق نموها. غير أنّه ليس يسيراً أن نحدد الباعث وراء القصة الأصلية. وتبعاً لمدرسةٍ من الكتّاب، فإنّ هذه الحكايات الفلكلورية الشعبية تجسّد عقائد أسطورية عميقة، وقد بُنيَت عن قَصْد لتنقل، عن طريق التعليم الرمزي أو التمثيلي المسرحيّ، حِكَمَ الديانات والفلسفات القديمة. ولعلّ هذا أن يكون صحيحاً إلى حدٍّ ما، لكن صحّته أو عدم صحّته ليس لها سوى أهمية عملية ضئيلة، بصرف النظر عن الواقعة ذاتها، وما يمكن أن تثيره مثل هذه الوقائع من تأوّلات. فما من مهارة نمتلكها

---

(1) الهوتنتوت فرد من أفراد شعب في جنوب أفريقيا قصير القامة ذو بشرة صفراء بنّية قاتمة (م).

يمكن أن تحسم بأيّ قَدْرٍ من اليقين أمر الأصل الأسطوري أو غير الأسطوري لحكاية فلكلورية، أو عائلة من مثل هذه الحكايات، والمحاولات التي قامت لتأويل هذه الحكايات وفقاً للأساطير كان مآلها الإخفاق الذريع.

ويبدو لي أنَّ ثمّة قدراً كبيراً من الخلط الفكري فيما يتعلّق بالباعث الأسطوري الذي يُزعَم أنّه يقف وراء كثير من الحكايات الفلكلورية؛ إذ يُخلَط بين التفسير الأسطوري لحكايةٍ ما وبين أصلها وباعثها الأسطوريين. ونحن لا نلقي سوى قليل من الضوء على هذا الأمر حين ننسب شتى الحوادث في حكاية فلكلورية إلى تعاليم أسطورية قديمة. ومثل هذه المحاولة تشبه الجهود التي بذلها شُرّاح الوثنية المنهارة من الأفلاطونيين الجدد، فقد سعوا لأن يُظهِروا حصافتها بإضفاء تأويلٍ روحاني مرهف ومعقّد على ما شهده تعدد الآلهة من حوادث مادية وفاحشة. والسؤال -الذي كثيراً ما غاب عن الأنظار- ليس ما إذا كان من الممكن التوفيق على هذا النحو بين حوادث الأساطير الوثنية وعقلِ فيلسوفٍ معين، بل ما إذا كانت الحوادث ذاتها قد أُنْشِئَت بقصدِ تقديمِ حقيقةٍ روحيةٍ للعقل، وجُسِّدَت لكي تنقل مثل هذه الدروس الروحية إلى أفهام المتعبّدين. وثمّة نظام مماثل ينبغي أن يُلْحَظ لدى

تفحّص هذه الحكايات وتأويلها؛ فألمع تأويلٍ لحكايةٍ فلكلورية، وألمع نِسْبَةٍ لها إلى حوادث أسطورية، لا يمضيان بنا خطوة واحدة باتجاه تحديد باعثها، وإلقاء الضوء على ضروب الغموض التي تحيط بأصلها. فحضور الحوادث الأسطورية في حكاية لا يفسّر أصلها أيّ تفسير، ولا يساعدنا على إثبات أنَّ لهذه الحكايات طابعاً أسطورياً. والأدب الشعبي -خاصةً ذاك الأدب الذي أتحدّث عنه- لابد من أن يعكس نبرة العقل الشعبي؛ وإذا ما كان للأساطير سيطرة مُعْتَبَرَة على العقلِ الشعبي، وقت إبداع الحكاية أو خلال نموها، فإنَّ هذه الواقعة يُدَلُّ عليها من خلال الشخصيات المقدَّمَة، كما من خلال الصبغة العامة المضفاة على الحكاية ذاتها؛ تماماً كما يَصْبُغُ عقلٌ عميق التدين إبداعات الخيال أو نتاجات الفكر بقناعاته الدينية. لكن الحكايات والمقالات العلمية قد تكون مسيحيةً على نحو عميق لجهة روحيتها أو طابعها المميز دون أن نضطر لأن نعزو إلى مؤلّفيها نيّة أن يقدّموا، بهذه الطريقة، شرحاً باطنياً لأركان العقيدة.

وينبغي ألا ننسى أنّه حين نشأت معظم المواد الأولية، التي بنيت منها هذه الحكايات الفلكلورية، كان تعدد الآلهة قد عَمَرَ البساتين والأنهار، والجبال والوديان والتلال والسهول والسماء من فوق والبحر العميق من تحت، بل ومركز الأرض، بكائنات

خارقة للطبيعة. فكلُّ يوم وكلُّ جزء من الحياة له وَصِيُّهُ؛ وكلُّ عائلة لها إلهها المنزلي؛ وكلُّ فرد له روحه الحافظة أو الحارسة. وكانت كليّة الوجود مقسّمة إلى ذرّات، وثمّة ذرّة حاضرة في كلِّ مكان. وفي مثل هذه الظروف كان من الصعب بناء حكاية أو إعادة ترتيب شذرات حكايات أسبق دون إدخال عناصر الاعتقاد الشعبي هذه. ومن غير هذا، ما كان لحكايةٍ أن تغدو حكايةً فلكلورية. لكن ذلك لا يرجّح بأيّ حال من الأحوال الدلالة الأسطورية أو الأصل الأسطوري لهذه الحكايات، إلا بقدر ما يثبت إدخال البنادق والمسدسات، والغاز أو التلغراف، في حكاية حديثة أن لها باعثاً عسكرياً أو علمياً.

واعتقادي، أنَّ عيّنةً من عينات الطريقة التي تُؤوَّل بها الحكايات الفلكلورية أسطورياً كفيلة بأن تبيّن في آنٍ معاً كلاً من ألمعية المؤوِّل وغياب أيّ أساسٍ لهذا التأويل. والحكاية التي أوردها كعيّنةٍ لهذا النوع من المعالجة هي حكاية تَرِدُ بأشكال عديدة في إنجلترا، وفي جنوب إيطاليا، وفي ألمانيا، وفي التيرول[1]، وفي هنغاريا، وأيسلندا، وسوابيا[2]، ووالاشيا[3]، واليونان، وربما في بلدان أخرى، شأنها في ذلك شأن الحكايات الفلكلورية عموماً. وسوف أعرضها هنا

(1) منطقة في الألب باتت اليوم مقسّمة بين النمسا (ولاية) وإيطاليا (قرية) (م).
(2) منطقة تاريخية ولغوية على حدٍّ سواء في ألمانيا. وفي العصور الوسطى كانت تضم بقاعاً أخرى من دول أخرى (م).
(3) منطقة تاريخية وجغرافية تشكل الآن جنوب رومانيا (م).

كما ترد في كتاب «حكايات أُسَريّة يونانية حديثة»، الذي قام بتحريره فون هاهن، لأن الرواية اليونانية لهذه الحكاية لها ميزة أنّها أقصر من معظم مُنوَّعاتها. أمّا التفسير الألمعي على الرغم من كونه خيالياً فنجده في تذييل كتاب السيد هندرسون «ملاحظات حول فلكلور مقاطعات إنجلترا الشمالية».

«رجلٌ وامرأةٌ لم يعقبا خلفةً؛ تضرَّعت المرأة كي تُرْزَق بولد، ولو كان ثعباناً؛ وبعد زمن وضعت ثعباناً، ترك البيت واتّخذ جحْرَاً مسكناً له.

المرأةُ نكدةٌ مريعة، وسيئة فوق ذلك؛ تجلب على البيت الفقر، فتمضي إلى الثعبان لتطلب منه أن يسعفها. يعطي الثعبان أمَّه حماراً يبعر ذهباً، ويحذّرها ألاّ تدعه يمسّ الماء. يعيش الزوجان على الذهب لفترة، لكن المرأة تقود الحمار في آخر الأمر إلى الماء، فيهرب ويضيع. وتعود ثانيةً إلى ولدها، الذي يعطيها كوزاً يفعل كل ما تريد، فتبيعه للملك، وتُرَدّ إلى الفقر. فيمضي زوجها الشيخ هذه المرة إلى جحر الثعبان ويحصل على عصا، يقول لها: «ارتفعي، أيتها العصا، وقومي بواجبك!»، فتضرب المرأةَ على رأسها وتقتلها؛ ويعيش الرجل بعد ذلك في هناءٍ دائم».

وعلى هذا، يعلّق الكاتب الذي يتولّى تأويل هذه الحكاية، قائلاً:

«ثمّة أدلّة قوية تثبت أنّ هذه القصص تقوم على أساس أسطوري مشترك. فالحيوان الذي يبعر ذهباً، والمائدة المسحورة أو غطاء المائدة المسحور، والعصا التي تعمل وحدها، كلٌ ذلك يظهر في بعض حكايات الهند القديمة، ودلالته الأصلية دلالةٌ واضحة.

المعلم، الذي يهب الهِبات الثمينة الثلاث، هو الأب الكليّ، أو الروح الأسمى. والحمار الذي يبعر ذهباً وجواهر هو سحابة الربيع المعلّقة في السماء، وتزخّ تلك الزخّات الربيعية المثمرة. والمائدة التي تغطي ذاتها هي الأرض وقد اكتست بالزهر والثمر بإيعازٍ من السنة الجديدة. لكن عائقاً هناك؛ المطرُ منحبسٌ، وعملية الإنبات متوقفة، بفعلٍ من أفعال الشرّ. عندئذ تأتي غيمة الرعد، ومنها يثب البرق وتنهمر الأمطار، فتتلقاها الأرض، وتكتسي بالخير العميم، وكلٌ ما كان ضائعاً يُسْتَعاد».

لا يظهر حادث إخراج البعر الجواهر إلا في رواية نابولي، الواردة في «بنتاميرون» جيامباتيستا باسيل[1]، ومن الواضح أنّه إضافةٌ من لَدُنْه إلى القصة الأصلية. ويبدو لي أنّ تفسير معنى الحكاية كان يمكن أن يُسْتَمدَّ على نحوٍ مناسبٍ من ميدان العلم أو التاريخ، وأن تؤوَّل بيسرٍ بألف طريقة وطريقةٍ أخرى. وإذا ما كانت الحكاية الفلكلورية قد جسّدت، في الأصل، حقيقةً

(1) – 1637، Naples.

أسطوريةً معينةً، الأمر الذي يمكن إثباته أو نفيه بالقَدْرِ ذاته من الصواب، فإنَّ هذه الواقعة لا قيمة لها لجهة مساعدتنا في تحديد ما كانت عليه مقاصد مبتدع الحكاية.

والرمزية الأسطورية، شأنها شأن كثيرٍ مما يُعْتَبَر رمزيةً كهنوتية، هي شهادة على ألمعية المؤوِّل؛ مع أنَّ لا وجود لها، غالباً، في الموضوع المؤوَّل. ولعلّنا نقدر أن نحلّ أشدَّ الوقائع إشكالاً، كما نشاء، إلى خيالات غير محسوسة؛ لكن الواقعة تبقى، وتبقى بعد أن يخبو الخيال ويذوي عائداً إلى عدمه الأصلي أو يتلبّث مقتصراً على كونه مجرّد فَلْتَةٍ جميلةٍ من فلتات المخيّلة. فالقياصرة الاثنى عشرة كانوا شخصياتٍ حيّةً وتاريخية، مع أنَّ مُتَأوِّلاً ألمعياً كان قد اختزلهم إلى ضروب أسطورية من عدم الوجود، وتتبّعَ فيهم شَبَهَاً بعلامات البروج الاثنى عشرة. حقّاً، إنَّ للحوادث الأسطورية والسِّيرية البطولية ميلاً إلى الارتباط برجال ونساء واقعيين إلى أن تخفي، مثل نباتاتٍ طفيلية ملتفّة حول جذع شجرة، الطابع الفعلي لأولئك الذين كَسَتْهُم على هذا النحو. غير أنَّ السِّر ريتشارد ويتنغتن[1] كان رئيس بلدية لندن، مع أنَّ

(1) السِّر ريتشارد وتنغتون (1354– 1423) تاجر وسياسي قروسطي، كان رئيس بلدية لندن وعضواً في البرلمان. موّل كثيراً من المشاريع العامة الخيرية، كالصرف الحي في المناطق الفقيرة من لندن القروسطية وسواه. وشخصية ديك وتنغتون القصصية والمسرحية الشهيرة (مع قطته) إنما تستند إلى ريتشارد وتنغتون، الذي يتضح هنا أنّ الشاعر الإنجليزي العظيم وردزورث كان قد تعرّض لحياته في قصيدته الأشهر «الفاتحة» (م).

الأصوات المسموعة من على قَرْن تلّة هاي غيت -

«حين جلس على حجرٍ، وكان صبياً ذابلاً

وبلا أصدقاء، وسمع الأجراس تجهر

بموسيقا فصيحة»[1].

ما عاد لها أيّ وجود واقعي يزيد على وجود قطته الشهيرة، ومع أننا لا ندين فيما يتعلق بالوسائل التي جُمِعَت بها ثروته العظيمة إلا إلى الابتداع اللطيف الذي ابتدعه كاتب حكايات شعبية.

ربما كان لكثيرٍ من هذه الحكايات أصلٌ تاريخيّ، ولعلنا نجد، لو استطعنا استعادة شكلها التاريخي، أنها تسجّل حوادث واقعية في حياة شخصية تاريخية أو أمّة. غير أنّه لا يكاد يسعنا الآن أن نخمّن ولو مجرّد تخمين شكلها الأصلي. فالأجيال المتعاقبة من الحكواتية أضافت إلى الحكاية الأصلية، استبدلت بالحوادث القديمة حوادث يفهمها الجمهور على نحو أفضل، ملتجئةً بذلك إلى أقرب ميول هذا الجمهور. وحين نُقِلَت من موطنها إلى أرض بعيدة تغيّرت الصبغة المحلية، وأَخْلَت العاداتُ المستغلقة المكانَ لأخرى دارجة، حتى لم يبقَ من الحكاية القديمة سوى أقلّ

(1) «Wordsworth، The Prelude»

القليل، وبات من المستحيل، حتى بمساعدة التحليل المقارن، كشفُ الشكل الذي برزت فيه أولّ مرة. ولقد وجد شكسبير، على الرغم من وجود أدبٍ مكتوب ومعلومات منتشرة، أنَّ من الضروري للقصص التي عَمِلَ على مَسْرَحَتِهَا أن تشتمل على أدواتٍ وأجهزة أَخْرَجَتْهَا إلى النور الاكتشافاتُ الحديثة، وهذا هو سبب تلك المفارقات الزمنية الوافرة في مسرحياته.

وإذا ما كانت هذه هي الحال حتى متى كان الأدب القومي أدباً مكتوباً، فإن بمقدورنا أن نثق مقدّماً بأننا لابدّ من أن نجد حكواتيّ السلاف الجنوبيين يطيل حكايته وينوّع عليها، ليس من مخازن علم الآثار القديمة، بل من تلك العادات الشائعة، اليومية التي تستهوي كثيراً جمهوره البسيط.

والقارئ الذي أَلِفَ الحكايات التي جمعها الجامعون المحدثون، سوف يتتبّع في هذا الكتاب، من غير صعوبة، شذرات الحكايات البدئية التي بنى منها الحكواتية في كلّ أصقاع الأرض وعلى مدى أجيال كثيرة حكاياتهم الخاصة أو وسّعوها. ولذلك لم أجد من الضروري أن أقوم بهذا التتبّع. غير أني أضفت بضع ملاحظات على بعض الحكايات التي يضمّها هذا الكتاب، هي مجرد توضيحات للطريقة التي بُنيت بها انطلاقاً من مواد أسبق: مثلما بُنيَت قصور النبالة الرومانية المحدثة انطلاقاً من مرمرٍ أُريد

له في الأصل أن يخلّد ذكرى انتصارات الجمهورية وبهاء ممثلي الإمبراطورية.

وفي الحكاية المُعَنْوَنَة «العدل أو الظلم»[1]، نجد أنَّ الطريقة التي تُسْتَدرَج بها ابنة الملك إلى ظهر السفينة، وتُخطَف مع وصيفاتها، لابدّ من أن تذكر بالحدث الذي يروى في الفقرة الافتتاحية من تاريخ هيرودوت. فالتشابه بين قصة اختطاف ابنة إيناخوس من قِبَل التجار الفينيقيين، وقصة الاختطاف في هذه الحكاية، هو تشابهٌ وثيق إلى درجة يصعب معها أن يكون مجرد مصادفة. وقد يحسب بعضهم أنَّ هذا يعزز الفكرة التي مفادها أنَّ رواية هيرودوت هي رواية أسطورية؛ وقد يحسب آخرون أن الحكاية الصربية قد تكون قائمةً على واقعة تاريخية. وما يدلّ على أنَّ الحكاية الواردة في هذا الكتاب ليست من أصل صربي، هو إدخال الفيلة، ووَصْفُ أسْرِهَا بعد تسميمها! أمّا عودة البطل إلى الحياة بفضل «ماء الحياة»، فهي حدث شائع في كثير جداً من هذه الحكايات الفلكلورية، ولعلّ من الإنصاف أن نعدّها «جذراً حكائياً أساسياً». ففي حكاية «باش تشالِك»، يُضفَى على ماء الحياة هذا طابع مسيحيّ ويتحوّل إلى ماء نهر الأردن، في حين يبقى في الطبعة السلافية الشمالية من هذه الحكاية «ماء الحياة» الذي يُدَّخَر كوسيلة يُستعاد بها البطل من الموت. والحكاية الصربية تتبع النمط الروسي عن كثب في معظم

(1) Ralston's «Russian Folk–Tales،» p. 85.

الجزئيات، وربما أمكنت مقارنتها مع الحكاية التي ترجمها السيد رالستون تحت عنوان «ماريا موريفنا»[1]. فـ الفولاذ الأصلي (باش تشالِك)في الحكاية الصربية هو الكوشتشي الذي لا يموت في القصة الروسية؛ ومن الواضح أنَّ الأخ الأصغر في القصة السلافية الشمالية هو الأمير إيفان في الحكاية السلافية الجنوبية. كما إنَّ اثنين من الخُطّاب هما نفسيهما في كلتا الحكايتين، والاختلاف الرئيس هو أنَّ الحكاية الفلكلورية الصربية تُدخِل الغراب بدلاً من التنين في الحكاية الروسية. أمّا حكاية «الإخوة الثلاثة» البوسنية فهي مثال حسن على الطريقة التي تجري بها توسعة هذه القصص. ذلك أنَّ لدينا هنا ثلاث حكايات منفصلة وُضِعَت في حكاية واحدة، ينبغي البحث عن حوادثها المتنوعة في تشكيلة منوَّعة من الحكايات وفي بلدان مختلفة. فمن ناحية أولى تبدو هذه الحكاية كأنها صدىً لقصة مصرية، مكتوبة على ورقة بردى يعتقد أنها تعود إلى زمن خروج بني إسرائيل، ومحفوظة في المكتبة الإمبراطورية. ولقد قدّم السيد غودوِن ملخصاً لهذه القصة في مقالات كيمبرج لعام 1858. والقفزة المدهشة التي يقفزها حصان الأخ الأصغر ليست إلا مبالغة في العمل البطولي المبالغ فيه أصلاً الذي يقوم به حصان بوذا، كنتاكو، بطوله البالغ ستة وثلاثين قدماً، وقدرته على أن يقطع ثلاثمئة من الأميال في ليلة واحدة، والذي حين تعيقه

---

(1) Ralston's «Russian Folk-Tales،» p. 85.

الآلهة، يتغلب على العوائق التي تعترض تقدّمه إذ يقفز قفزةً يجتاز بها نهر أنوما، الذي يبلغ عرضه مائتين وعشرة أقدام[1]. غير أنَّ تفاصيل هذا الجزء من القصة تتوافق جزئياً مع وصف تلك القفزة التي يقفزها حصان راما راجا الذي يقوم بثلاث قفزات متتالية، ليس فوق نهر عريض وحسب، بل أيضاً فوق أربعة بساتين كثيفة ومرتفعة من الكوبال، والسوباري، والجوّافة، وجوز الهند، كما يُحكى في قصة «راما ولكشمانا»[2]. ومن جديد، فإنَّ الأسنان الحديدية لدى الأخت في القصة البوسنية تشكّل جزءاً من العجائب في قصة «الساحرة»[3] الروسية، ولها مقابلها في قصة «الستريغلا»[4] اليونانية. أمّا الطريقة التي تُهلك بها العجوز ضحاياها بإلقاء شعرة من رأسها عليهم فهي شائعة أيضاً في هذه الحكايات الفلكلورية، وفي كثير من الحكايات التي يمكن أن نجدها في مجموعاتٍ مماثلة تُحكى في بلدان متباعدة كثيراً.

أمّا حادثة الشجرة التي تطلع من القبر في حكاية «التوأم ذهبيّ الشعر» الصربية فتشكّل أيضاً جزءاً من قصة «بَنشكِن» في مجموعة القصص من دكن[5]، حيث تفضي شجرة البوميلو التي

---

(1) Hardy's «Legends and Theories of the Buddhists» p. 134

(2) Frere's «Old Deccan Days» p. 76

(3) Ralston's «Russian Folk-Tales» p. 163

(4) Hahn's « Modern Greek Household Tales» No. lxv

(5) هضبة دكن هي هضبة واسعة في الهند تشكّل معظم الجزء الجنوبي من القارة (م).

تطلع من قبر شخص قتيل إلى معرفة القاتل[1]. وترد هذه الحادثة ذاتها مرة أخرى في حكاية «انتصار الحقيقة» في المجموعة ذاتها[2]، حيث يُعلَّم قبر أطفال الملك وجزرا باي البالغ عددهم مائة وواحد، بعد أن تقتلهم الملكة، زوجة أبيهم، ويدفنون بأمر منها، بشجرةٍ تطلع منه وحدها؛ وحين تُقطَع شجرة المانغا هذه بأمر الملكة التي تأمر بإحراقها أيضاً، يحول ارتفاع المياه دون تنفيذ الأمر، ويعوم الجذع إلى مكان آمن، ثم يستقر على ضفة، ويتحول إلى الأطفال من جديد.

وفي قصة «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها» تظهر شذرة أخرى مما تجرأت على تسميته «شذرات بدائية»، نظراً لشيوع الانتفاع بها في بناء الحكايات الفلكلورية لدى شتى الأعراق. ففي هذه القصة يطلب المارد مكافأةً له أن يأخذ ما كان الشيخ قد «نسيه في البيت»؛ فيحصل على واحدٍ من أبناء هذا الأخير، هو الذي تُرِكَ في البيت عندما انطلق أخوته الكثر سعياً وراء العرائس. وهذا ما يعاود الظهور في حكاية «ملك الماء وفاسيليسّا الحكيمة»[3]، وكذلك في قصة «الشباب» من تلك المناطق ذاتها[4]. أما الجزء

(1) «Old Deccan Days» p. 4

(2) المصدر السابق، ص 54.

(3) Ralston's «Russian Folk-Tales.» p. 120

(4) المصدر السابق، ص 139.

الأخير من الحكاية فيشبه حوادث الحكاية الهندية «سرينغابوجا». وفي قصة «حبّة الخردل»، فإنَّ حادثة دبابيس الحرب التي يطلبها البطل، ولا يرضى بها حتى يُصنع الدبّوس الثالث الذي يجتاز اختبار رميه في الجوّ ونزوله على جبهة «حبّة الخردل» دون أن ينكسر، لكنه يشدخ وحسب جبهة البطل، لا يقتصر ورودها على الحكاية الصربية «ابن الدبّ» وحسب، بل ترد أيضاً في حكاية «إيفان بوبيالوف» الروسية، التي ترجمها لنا السيد رالستون؛ في حين أنَّ الخداع الذي يمارسه على «حبّة الخردل» مرافقاه اللذان يتركانه في حفرة عميقة نزل إليها، ومغامراته اللاحقة سواء تحت الأرض أو فوقها، تكاد تكون مطابقةً لما نجده في حكاية فلكلورية روسية أخرى هي «النوركا»[1].

ولقد أشرتُ إلى هذه التشابهات والاستعارات المتنوعة، أو بالأحرى إلى هذه التنويعات على الأصل الواحد ذاته، لأنها تلقي الضوء على الكيفية التي تُبنى بها الحكايات التي نجدها في أرجاء الدنيا من شذرات هي ملكية مشتركة لبني البشر. ولا أحسب أنّه من الضروري أن نتتبّع جميع التشابهات مع الحكايات الأخرى، أو جميع الاستعارات من المخزون المشترك. فمعظم قرائي يستطيعون أن يقوموا بذلك بأنفسهم. وسوف أكتفي بأن أورد

(1) المصدر السابق، ص 73.

لهم مثالاً عن بناء الحكاية. فلقد رأينا أنَّ مخزون المواد الأصلية التي بُنيت منها هذه الحكايات الفلكلورية هو مخزون محدود في مداه، نسبياً، وأنَّ ذلك العدد الضخم من الحكايات التي تشكّل الأدب الشعبي العالمي ليس سوى دليل على المهارة التي ضَفَرَ بها أساتذة الفلكلور هذه المواد الشحيحة. فأدب أمةٍ من الأمم ليس في النهاية سوى الحصيلة التي تترتب على ضَفْرِ عشرين وبضعة من الأصوات والحروف.

وفي صربيا ثمة تميّزٌ لافتٌ في استخدام النثر والإيقاع في هذه الحكايات الفلكلورية. فالنثر هو الأداة المستخدمة في الحكايات التي ترويها النساء؛ أما الإيقاع فحقٌّ مقصور على الرجال. والقصص المنثورة عادة ما تُحكى في الدائرة المنزلية، وفي تجمعات النساء. ففي أمسيات الصيف حين تكون أعمال الحقل وأشغال المنزل قد انتهت، كان من المعتاد في القرى الصربية ولا يزال أن تجتمع الصبايا برفقة بعض الصديقات الأكبر سناً، تحت أغصان شجرة وارفة كبيرة، وبينما تنهمك الصبايا بالغَزْل، تعمد بعض النساء الأكبر سناً إلى تسلية البقية بحكاية هذه الحكايات التقليدية. أما الرجال فيُقْصَون عن هذه التجمعات، إذ ينظر إلى حكاية القصص التي تشغل الجزء الرئيس من تلك الأمسيات على أنها انشغال أنثوي على وجه الحصر. وهذه القصص هي

قصص نثرية على الدوام.

وثمة حكواتية من الرجال. لكن حكاياتهم تتخذ طابع القصائد في كلِّ مرّة، وعادةً -إن لم يكن دائماً- ما يرافقها عزفٌ على آلة موسيقية تشبه الربابة يجري على نغمة واحدة. ويمكن القول عموماً إنَّ هذه القصائد تروي حوادث تاريخية أو أسطورية من حياة الأمة؛ مع أنها قد تكون في بعض الأحيان من نوع الحكايات الفلكلورية التي نجدها في هذا الكتاب، والتي تروى في حلقات النساء. غير أنه حين يكون الحال على هذا النحو الأخير، فإنَّ التميّز الذي سبقت الإشارة إليه يُراعى تلك المراعاة الصارمة. فالحكاية الفلكلورية التي ترويها امرأة تكون منثورة؛ أما إذا رواها رجلٌ هي ذاتها فلا بد أن توضع في قالب شعري. ولا تخرج عن ذلك حتى السير البطولية المسيحية الصرف، التي نقدّم لقارئ هذا الكتاب عيّنة منها شائعة في البوسنة والهرسك، هي «سيرة القديس جورج البطولية»، التي تروى بمعونة من الإيقاع. ولعلّه أن يكون صحيحاً ما يفترضه بعضهم من أنَّ السير البطولية من هذا النوع الأخير كان يرويها الكهنة في كنائسهم، منثورةً ربما. أما وقد باتت ملكاً للحكواتية المحترفين فقد أُلبِسَت زيّاً ذكورياً من الشعر. وهذا الملمح الهوميري (من

هوميروس) الذي يميّز العادات الصربية آخذٌ في الاحتضار إلى جانب خصائص قومية أخرى. غير أنه لا يزال بعيداً عن الموت، واستخدام مثل هذه الأشعار لا يقتصر على الاحتفاء بأمجادِ حكم ستيفان دوشان[1] ، أو بطولة جورج برانكوفيتش[2] ، أو هزيمة كوسوفا الفاجعة[3]. فالسجالات الطويلة المملة التي شهدها البرلمان الوطني، أو السكوبتشينا، عام 1870، حول حرية فتح الدكاكين والتعيّش منها في القرى بخلاف البلدات، جرى إيجازها وأشيعت في أرجاء البلاد بطريقة لا بدّ أن تُدهِش من يقرأون سجالات برلماننا الإنجليزي. فقد اتّخذ النقاش بأكمله، مع حجج مختلف المتكلمين، شكل أغنية أو قصيدة طويلة، تُلقى في الهواء الطلق أمام القرويين المحتشدين لسماع كيف جرى الجدال وإلامَ انتهى. ولعلّ هذه الطريقة ذاتها هي التي اتبعها أبو الشعر، وأمير الحكواتية، أو أولئك المغنون المحترفون، إذا ما صدّق المرء نظرية وولف[4] ، فوضع الأحداث العسكرية

(1) الملك الذي بلغت قوة الصرب ذروتها في عهده الذي استمر من 1331 إلى 1355 (م).

(2) بعد موت دوشان سرعان ما انقسمت إمبراطوريته إلى ثلاث دول: صربيا في الشمال التي بقيت لابن دوشان (اوروش) الملك الأخير من أسرة نيمانيا، بينما استقل جورج برانكوفيتش –ممثل العائلة المنافسة لأسرة نيمانيا– بجزء من مقدونيا وجزء من كوسوفا، بينما تولت أسرة بالشاي حكم الجزء الآخر من كوسوفا وألبانيا الشمالية بالإضافة إلى الجبل الأسود (م).

(3) في «معركة كوسوفا» عام 1389، على يد العثمانيين الذين صدّعوا الدولة الصربية الكبرى وحجّموها وكرّسوا الوجود العثماني– الإسلامي في قلب البلقان (م).

(4) فريدريش أغسطس وولف، العلامة الألماني صاحب كتاب «مدخل إلى هوميروس»

والبحرية، وحجاجات القادة الكبار، والسجالات أمام خيمة أغاممنون، أو في مجلس شورى طروادة، في قالب شعري، وبذلك اشتُهِرَتٍ في أرجاء اليونان جميعاً في شكل الإلياذة. ومهما يكن الأمر، فإنَّ تلك الممارسة التي لا تزال حيّة في صربيا هي مثالٌ على الطريقة التي نقل بها هوميروس صربي إلى أبناء بلده تفاصيل الاجتماعات في مجلس الشورى والمناوشات التي جرت في السهل وأضفت تنوعاً على تاريخ حصار، فضلاً عن مختلف التقادير التي شغلت اهتمامهم.

الذي رفض فيه وجود هوميروس واحد (م).

ابن الدبّ

تزوّجَ دبٌّ مرّةً من امرأةٍ، وأنجبا ولداً. و لم يكن الصبيّ سوى مخلوقٍ صغير حين رجا أبويه أشدّ الرجاء أن يسمحا له بمغادرة المغارة والخروج إلى الدنيا لرؤية ما فيها. غير أنَّ والده، الدبّ، لم يوافق، وقال: «مازلتَ صغيراً، لم تنَل من القوة ما يكفي. وفي الدنيا حشودٌ غفيرةٌ من وحوشٍ شريرةٍ، تُدعى بني البشر، سوف تفتك بك». فهدأ الصبي لفترةٍ، وبقي في المغارة.

بيد أنّه لم يمضِ وقتٌ طويل حتى تضرّع الصبي أن يسمح له الدبّ، والده، بأن يخرج إلى الدنيا، فمضى به الدبّ إلى الغابة، وأراه شجرةَ زان، وقال له: «إن استطعتَ أن تقتلع هذه الشجرة من جذورها، فسوف أسمح لك بالخروج؛ وإن لم تستطع، فذلك برهان على أنك لا تزال ضعيفاً، وينبغي أن تبقى إلى جانبي». حاول الصبي أن يقتلع لشجرة، لكنه اضطُرَّ، بعد طولِ محاولةٍ، أن يكفَّ عن ذلك، ويرجع ثانيةً إلى المغارة.

ومـرّت فـترةٌ أخـرى، ورجـا الصبي ثانيةً أن يُسمح له بالخروج إلى الدنيا، فقال له أبوه، كما في المرّة السابقة، إنّه إذا ما استطاع اقتلاع شجرة الزّان يمكن أن يخرج إلى الدنيا. واقتلع الصبي الشجرة هذه المرّة، فرضيَ الدبّ أن يطلقه، إنّما بعد أن جعله يقطع أغصان الشجرة، كي يمكن له أن يستخدم جذعها هراوةً. وعندها شرع الصبي في ترحاله، حاملاً جذع شجرة الزّان على كتفه.

وبينما كان ابن الدبّ يتنقّل من مكان إلى آخر، وصل ذات يوم إلى حقلٍ فيه مئات الفلاحين الذي يعملون عند سيّدهم. وحين طلب منهم أن يعطوه شيئاً يأكله، قالوا له أن ينتظر قليلاً ريثما يُجْلَب لهم الغداء الذي لابدَّ من أن يصيبه منه شيء، لأنَّ «فماً زيادةً بين هذه الأفواه الكثيرة لن يغيّر من الأمر كثيراً». وبينما كانوا يتحدثون هناك، أتت عربات وجياد وبغال وحمير، جميعها تحمل الغداء. غير أنّه حين فُرِشَ الطعام، قال ابن الدبّ إنَّ بمقدوره أن يلتهم كلّ ذلك وحده. فتعجّب العمال لقوله كثيراً، و لم يصدّقوا أنَّ بمقدور شخص واحد أن يلتهم مقداراً من الزّاد عظيماً يمكن أن يكفي مئات الأشخاص. لكن ابن الدبّ أصرّ على أنَّ بمقدوره أن يفعل ذلك، وعَرَضَ أن يراهنهم عليه.

واقترح أن يكون الرهان كلّ الحديد الذي في محاريثهم وسواها من أدواتهم الزراعية. فوافقوا على ذلك. وما إن أقاموا الرهان حتى انكبّ على الطعام، فأتى عليه كلّه خلال وقت قصير، و لم يبقِ على كِسرةٍ واحدة. فأعطاه العمال كلّ الحديد الذي لديهم، تبعاً لما يقتضيه الرهان.

وحين جمع ابن الدبّ الحديد كلّه، قطع شجرة سَنْدَرٍ فتيّة، وثناها مثل حزامٍ جَمَعَ به الحديد في حزمة، علّقها في طرف عصاه، وألقاها على كتفه، ومضى متثاقلاً أمام أنظار العمال المشدوهين الذين راحوا يتهاوشون.

و لم يقطع مسافةً قصيرةً حتى وصل إلى مَحْدَدَةٍ حيث كان الحدّاد يصنع سكّة محراث. فطلب منه أن يصنع له دبّوساً من الحديد الذي يحمله. ومضى الحدّاد في صنع الدبّوس، لكنه خرج بدبّوسٍ صغيرٍ، سيء الصنع، لم يَضَع فيه سوى نصف الحديد، الذي وضع جانباً نصفه الآخر.

وبلمحةٍ أدرك ابن الدبّ أنّ الحدّاد قد غشّه. كما اشمئزّ أيضاً من سوء الصناعة. لكنه أخذ الدبّوس، وأعلن عزمه على أن يجرّبه. فربطه إلى طرف عصاه وقذفه في الهواء أعلى من الغيوم ووقف ساكناً ينتظر سقوطه على كتفه. وما إن مسّه القضيب حتى تكسّر

قِطَعاً، سقط بعضها على المَحْدَدَة وحطّمها. وبينما كان ابن الدبّ يلتقط عصاه، راح يوبّخ الحدّاد على عدم أمانته، ثم قتله في أرضه.

وبعد أن جمع ابن الدبّ كلّ الحديد الذي كان معه، مضى إلى مَحْدَدَة أخرى، ورغب إلى الحدّاد الذي وجده هناك أن يصنع له دبّوساً، وقال له: «أرجو ألا تغشّني. لقد جَلَبْتُ لك قِطَعَ الحديد هذه لكي تستخدمها في صنع دبّوس. حذار أن تخدعني كما حاول غيرك!». وما إن سمع الحدّاد ما حصل لزميله حتى جمع عمّاله جميعاً، وألقى في النار بالحديد كلّه، ثمّ لَحَمَه جميعاً في دبّوس بارع الصنع.

وحين شدَّ ابن الدبّ هذا الدبّوس إلى طرف عصاه، لاختباره، قذف به عالياً، ثم تلقّاه على ظهره. لم ينكسر الدبّوس هذه المرّة، بل ارتدّ وحسب. فنهض ابن الدبّ وقال: «هذا عملٌ حَسَنٌ!»، ثم مضى في سبيله، وقد وَضَع الدبّوس على كتفه. و لم يبتعد كثيراً حتى بلغ حقلاً يحرثه رجلٌ بواسطة ثورين، فأقبل عليه وطلب منه شيئاً يأكله. فقال الرجل: «ابنتي على وشك أن تصل ومعها غدائي، وعندها سنرى ما إنعم علينا الربّ به!». لكن ابن الدبّ أخبره كيف التهم الغداء المُعَدَّ لمئاتِ كثيرةٍ من الفلاحين، وسأله: «ما الذي يمكن أن يصيبني أو يصيبك من غداءٍ أُعِدَّ لشخصٍ

واحـدٍ؟». في هذه الأثناء جاءت الفتاة ومعها الغداء. وما إن وضعته على الأرض، حتى مَدَّ ابن الدبّ يده ليأكل، لكن الرجل أوقفه، قائلاً: «لا! عليك أولاً أن تصلي صلاة الشكر، كما أَفعلُ!». ولأنَّ ابن الدبّ كان جائعاً فقد أطاع، وحين أنهيا صلاة الشكر راحا يأكلان كلاهما. وحين وقَعَتْ عينا ابن الدبّ على الفتاة التي أحضرت الغداء (وكانت طويلة، قوية، جميلة)، تعلّق بها، وقال لأبيها: «أتعطيني ابنتك زوجةً؟»، فأجاب الرجل: «لكنتُ أعطيتك إياها بسرور لكنني سبق أن وعدت بها أبا شَنَب». فصاح ابن الدبّ: «وما الذي يهمني من أَمْرِ أبي شَنَب؟ ذلك هو دبّوسي جاهزٌ لأجله!». لكن الرجل أجابه: «صَه! صَه! أبو شَنَب ليس قليلاً أيضاً. سوف تراه هنا عمّا قريب». ولم يَطُل الوقت حتى سُمِعَت ضجّةٌ على مبعدةٍ، وإذا بنصفِ شَنَبٍ يظهر من وراء تلٍّ هناك، وفيه من أعشاش العصافير ثلاثمئة وخمسة وستون. وسرعان ما تلا ذلك ظهور نصف الشنب الآخر، ثم جاء أبو شنب نفسه. وحين وصل إليهم، سارع إلى الاستلقاء على الأرض، طلباً للراحة. ووضع رأسه على ركبة الفتاة وطلب منها أن تحكّ رأسه قليلاً، فأطاعته. لكن ابن الدب نهض، وضربه بعصاه على رأسه، فأشار أبو شنب بإصبعه إلى مكان الضربة، وقال: «شيءٌ ما عضّني هنا!»، وضربه ابن الدب بدبّوسه في

موضع آخر، فأشار أبو شنب ثانيةً إلى المكان، وقال للفتاة: «شيءٌ ما عضّني هنا!»، وحين تلقى ضربةً ثالثة، قال للفتاة غاضباً: «انظري! شيءٌ ما يعضني هنا!». وعندها قالت الفتاة: «لم يعضّك شيء؛ بل شخصٌ ضَرَبَك!».

حين سمع أبو شنب ذلك هبّ واقفاً، لكن ابن الدبّ كان قد ألقى دبّوسه وفرّ هارباً. فسعى أبو شنب في إثره، ومع أنّ ابن الدبّ كان أخفّ منه وزناً، ويسبقه بمسافةٍ، فإنّه لم يكفّ عن ملاحقته.

وفي فراره، وصل ابن الدبّ في النهاية إلى نهرٍ عريض، وجد قربه بعض الرجال يدرسون الحنطة، فصاح بهم: «النجدة، يا أخوتي، ساعدوني، كرمى لله! ساعدوني! أبو شنب يلاحقني! ماذا أفعل؟ كف لي أن أعبر النهر؟». مدّ أحد الرجال مجرفته، قائلاً: «إليك هذه! اجلس عليها، وسوف أقذف بك إلى الضفة الأخرى من النهر!». جلس ابن الدبّ على المجرفة، وقذف به الرجل فوق الماء إلى الضفّة الأخرى. وسرعان ما وصل أبو شنب، وسألهم: «هل مرّ أحدٌ من هنا؟». فأجاب الدرّاسون أنّ رجلاً قد مرّ. فسأل أبو شنب: «وكيف عَبَرَ النهر؟» فأجابوا: «لقد قَفَز قفْزاً». وعندها تراجع أبو شنب إلى الوراء قليلاً لكي يتيح لنفسه مسافةً، وبنطّةٍ واحدة قفز إلى الضفة الأخرى، وواصل سعيه

وراء ابن الدبّ. وفي هذه الأثناء، كان هذا الأخير قد هدّه التعب وهو يركض متسلّقاً أحد التلال. وفي قمة ذلك التلّ وجد رجلاً ينثر الحَبّ، وكيس البذار معلّق في رقبته. وبعد كلّ حفنةٍ ينثرها في الأرض، كان يضع حفنة في فمه ويأكلها. فصاح ابن الدبّ: «النجدة، يا أخي، النجدة! كرمى لله. أبو شنب يطاردني، ويكاد أن يمسك بي! خَبِّئني في مكانٍ ما!». فقال الرجل: «ليست مزحة أن يطاردك أبو شنب. لكنّه ما من مكان أخبئك فيه، سوى هذا الكيس بين الحَبّ». ووضعه في الكيس. وحين وصل أبو شنب إلى الرجل سأله إنْ كان قد رأى ابن الدبّ؟ فأجابه: «أجل! لقد مرّ بي منذ وقتٍ طويل، ولا يعلم إلا الله أين وصل الآن!».

عندئذٍ، عاد أبو شنب من حيث أتى. وبعد فترة نسي الرجل الذي كان ينثر الحبّ أنّ ابن الدبّ في كيسه، فتناوله مع حفنةٍ من الحبّ، ووضعه في فمه. وخاف ابن الدبّ أن يبتلعه، فسارع إلى إلقاء نظرةٍ استطلع بها فم الرجل، ورأى سنّاً منخورةً فاختبأ فيها.

وحين عاد الرجل إلى بيته في العشيّة، قال لأختيّ زوجته: «يا بنات، هاتوا نَكّاشَة أسناني! هنالك شيء ما في سنّي المنخورة». فجلبت أختا زوجته نكّاشتين من الحديد، ووقفت

كلٌّ واحدة في جهة وراحتا تَنْكُشان بالكّاشتين في سنّه إلى أن قفز ابن الدبّ خارجاً. وعندها تذكّره الرجل، وقال: «يا لحظّك العاثر! كدتُ أبتلعك».

وبعد أن تناولوا العشاء راحوا يتحدثون في أمورٍ شتى، إلى أن سأل ابن الدبّ في النهاية عمّا كَسَرَ تلك السنّ وحدها دون غيرها من الأسنان التي بقيت قوية وسليمة. فقال الرجل: «مرّةً مضينا عشرة أشخاص بثلاثين حصاناً إلى شاطئ البحر كي نشتري الملح. فوجدنا فتاةً في حقلٍ ترعى الغنم، وسألتنا عن وجهتنا. فقلنا إننا ذاهبون إلى شاطئ البحر كي نشتري الملح. فقالت: «ولماذا تقطعون كل هذه المسافة؟ في الحقيبة التي بيدي بعض الملح الذي تبقّى بعد أن أطعمت الخراف، أحسب أنّه يكفيكم». وحين اتفقنا على الثمن، أخرجت الملح من حقيبتها، بينما إنزلنا الأكياس عن الثلاثين حصاناً، ووزنّا الملح وملأناها به حتى امتلأت الأكياس الثلاثون جميعاً. ثم دفعنا للفتاة، وعدنا من حيث أتينا. كان ذلك اليوم يوماً خريفياً جميلاً؛ غير أننا ونحن نقطع جبلاً مرتفعاً عجّت السماء بالسحب وبدأت تُثلج، وكانت ريحٌ شمالية باردة، فلم نستطع أن نرى دربنا ورُحنا نتخبّط ذات اليمين وذات الشمال. ومن حسن الحظّ أن أحدنا

صاح أخيراً: «ها هنا، يا أخوتي! ها هنا بقعة جافّة!» فمضينا واحداً تلو الآخر إلى أن بتنا جميعاً، ومعنا الثلاثين حصاناً، في ملجأ. وعندها أنزلنا الأكياس عن الجياد، وأضرمنا ناراً، وقضينا الليلة هناك كما لو أننا في بيت. وفي الصباح، ما الذي تحسب أننا رأيناه! كنّا جميعاً في جمجمة إنسانٍ ملقيّةٍ وسط الكروم؛ وفي غمرة دهشتنا وانكبابنا على تحميل جيادنا، جاء حارس الكروم والتقط الجمجمة ووضعها في مقلاع ودوّرها عدّة مرّاتٍ، ثمّ قذفها من فوق رأسه بعيداً كي يُبعِد الزرازير عن العناقيد. هكذا رحنا نتدحرج عن التلّ، وعندها انكسرت سنّي».

الكشك العجيب

عاش مرّةً ملكٌ، له ثلاثة أولاد وبنت واحدة. ولكي يحمي الوالد هذه البنت، التي كان يخشى عليها خشيته على عينيه، حبسها في قفص. وحين كبرت الفتاة، طلبت من والدها ذات مساء أن يسمح لها بالمشي قليلاً مع إخوتها أمام القصر، فأجاب الوالد طلبها. غير أنّها لم تكد تخطو أول خطوة لها خارج باب القصر حتى حطّ تنين واختطفها من إخوتها، وحلّق بها إلى السحاب.

هُرِع الإخوة بأسرع ما أمكنهم، وأخبروا أباهم بما حصل لشقيقتهم، وطلبوا منه أن يطلقهم بحثاً عنها، فوافق الوالد، وأعطى كلاً منهم حصاناً وأشياء أخرى يحتاجون إليها في سفرهم، ثمّ مضوا باحثين عن أختهم. وبعد سفر طويل، وقعت أبصارهم على كشكٍ، لم يكن في السماء ولا على الأرض، بل كان معلّقاً في منتصف المسافة بينهما. وحين اقتربوا منه، راحوا يفكرون أنّ أختهم قد تكون فيه، وتشاوروا معاً كيف يمكن أن يتدبّروا أمر الوصول إليه. وبعد طول تمعّنٍ قرّ قرارهم أنَّ على واحدٍ منهم

أن يقتل حصانه، ويصنع سَيْراً من جلده، ويربط طرف السَّيْر إلى سهم، ويطلقه من القوس حتى ينفذ عميقاً في جانبٍ من الكشك، وبذلك قد يمكنهم أن يتسلقوا وصولاً إليه. واقترح أصغر الإخوة على الأكبر أن يقتل حصانه، لكنّ هذا الأخير رفض أن يفعل. وكذلك رفض الأخ الأوسط، فلم يبقَ سوى الأخ الأصغر ليقتل حصانه، ففعل هذا الأخير وصنع من جلد الحصان سَيْرَاً طويلاً، ربط إليه سهماً وأطلق السهم باتجاه الكشك.

كان السؤال بعد ذلك، من الذي سيتسلق الشريط؟ فأعلن الأخ الأكبر أنه لن يفعل؛ وأَبى الأوسط أيضاً، فاضطر الأصغر أن يتسلّق. وحين بلغ الكشك، مضى من حجرة إلى حجرة، إلى أن وجد شقيقته في آخر الأمر، جالسةً والتنين نائم ورأسه على ركبتها، وهي تمرّر أصابعها في شعر رأسه.

وحين رأت أخاها خشيت عليه أشدّ الخشية، وأشارت إليه أن يذهب قبل أن يستيقظ التنين. لكن أخاها لم يفعل، وبدلاً من الهرب أخذ دبّوسه وهوى به بكلّ ما أوتي من قوةٍ على رأس التنين. حرّك التنين كفّه قليلاً صوب المكان الذي وقعت عليه الضربة، وقال للفتاة: «شعرتُ أنّ شيئاً قد عضّني هنا». ولم ينهِ كلامه حتى هوى ابن الملك عليه بضربة أخرى، فقال التنين ثانية:

«شعرت أنّ شيئاً قد عضّني هنا». وحين رفع الأخ دبّوسه ليضرب الضربة الثالثة أشارت الأخت لتريه أين يضرب الضربة القاضية. فهوى بالضربِة القاضية، وخرَّ التنين صريعاً في الحال، فدفعته ابنة الملك عن ركبتها وهُرِعت إلى أخيها وقبّلته، ثمّ أمسكت بيده وراحت تريه شتّى حجرات الكشك.

أخذته أولاً إلى حجرةٍ فيها حصان أسود أُسْرِج بكلّ ما يلزم لامتطائه، وعدّته بأكملها من الفضة الخالصة.

ثمّ قادته إلى الحجرة الثانية، وكان فيها حصان أبيض، أُسرِج وأُلجِم أيضاً، وعدّته بأكملها من الذهب الخالص.

وأخيراً اصطحبت الأخت أخاها إلى الحجرة الثالثة، حيث رأى حصاناً أشهب، رُصّعَت أعنّته وركابه وسرجه جميعاً بكثير من الأحجار الكريمة.

وبعد المرور بهذه الحجرات الثلاث، اصطحبته إلى حجرةٍ جلست فيها صبية خلف طارة ذهبية، منكبّةً على التطريز بخيطٍ من ذهب.

ومن هذه الحجرة مضيا إلى أخرى، كانت فيها فتاة تغزل خيطاً ذهبياً، ثم إلى أخرى جلست فيها فتاة تَنْظُم الدرّ في خيط، وأمامها، على طبق من الذهب، كان ثمّة دجاجة ذهبية وفراخها، ينقّون الدرّ.

وإذْ رأى الأخ هذه الأشياء كلّها، عاد إلى الغرفة حيث صرع التنين، وحمله وألقى به إلى الأرض، فكاد قلب الأخوين، الموجودين في الأسفل، ينفطر من الخوف لمرأى جثّة التنين. ثم جعل الأمير الشاب أخته تنزل ببطء، وخلفها الفتيات الثلاث، ومع كلٍّ منهنّ العمل الذي كانت تعمله. وبعد أن جعلهنّ ينزلن، واحدة إثر أخرى، صاح لأخويه وقال لهما أيّ فتاة ستكون لكلٍّ منهما، واحتفظ لنفسه بالفتاة الثالثة، التي كانت تَنْظُم الدرّ بعونٍ من الدجاجة الذهبية وفراخها. غير أنَّ الحسد كان يعتمل في صدر أخويه لأن شجاعته قد أَفلَحَتْ، ووجد أخته وأنقذها من التنين، ولذلك فقد قطعا السَّيْر كي لا يعود بمقدوره أن يهبط من الكشك.

وفي الحقول القريبة، وجد هذان الأخوان راعياً شاباً، فجعلاه يتنكّر وأخذاه إلى والدهما، وهدّدوا أختهما والفتيات الثلاث أشدّ التهديد في حال إخبارهنّ الوالد بما جرى. وبعد فترة بلغت الأخبار الأخ الأصغر، الذي بقي في الكشك، بأنّ أخويه والراعي سوف يتزوجون الفتيات الثلاث. وفي يوم زواج أخيه الأكبر، امتطى الأخ الأصغر صهوة حصانه الأسود، وما إنْ عاد المدعوون إلى حفل الزفاف من الكنيسة،

حتى هبط الأمير الشاب من الكشك، واندفع في وسطهم، وضرب أخاه الأكبر ضربة خفيفة في ظهره، فسقط هذا الأخير عن صهوة حصانه؛ أما هو فأسرع عائداً إلى الكشك. وفي يوم زواج أخيه الأوسط، نزل الأصغر ثانية وسط حفل الزفاف، بعد العودة من الكنيسة، وضرب أخاه الأوسط كما فعل بالأخ الأكبر، فسقط عن صهوة حصانه، أما هو فعاد إلى الكشك. وأخيراً، حين سمع الأمير بأنَّ الراعي الشاب على وشك الزواج من الفتاة التي كان قد اصطفاها لنفسه، امتطى الحصان الأشهب، وهبط من جديد، واندفع وسط ضيوف العرس وهم خارجون من الكنيسة، وضرب العريس بدبوسه على رأسه فخرّ صريعاً في الحال. وحين اجتمع الضيوف من حوله ليمسكوا به، تركهم يفعلون ذلك، ولم يحاول الفرار، وسرعان ما أثبت لهم أنَّه الابن الثالث للملك، وأنَّ الراعي لم يكن سوى مُنْتَحِلٍ، وأنَّ الحسد قد دفع أخويه لأن يتركاه في الكشك، حيث وجد أخته وقتل التنين. وأكّدت أخته والفتيات الثلاث كلّ ما قاله، حتى إنّ الملك الذي غضب لفعلةِ الأخوين الكبيرين، طردهما من بلاطه؛ وزوّج الأخ الأصغر من الفتاة الثالثة، وأَوْرَثَه مملكته حين مات.

أُغطِيَةُ الثعبان: لغة الحيوان

عاش مرّةً راعٍ كان يخدم سيّده بصدق وأمانة. وفي يومٍ من الأيام، بينما كان يرعى الغنم في الغابة، سمع فحيحاً، وتساءل عمّا يمكن أن يكون عليه هذا الصوت. وتوغّل في الغابة محاولاً أن يكشف حقيقة الأمر، فوجد الغابة تحترق، وثعباناً يفحّ وسط ألسنة اللهب. وقف الراعي يراقب ما سيفعله الثعبان، وقد أحاطت به النار من كلّ جانب، وراحت تقترب منه أكثر فأكثر. عندئذٍ صاح الثعبان: «كرمى لله، أيها الراعي الطيب، أنقذني من النار!».

فمدَّ الراعي عصاه عبر ألسنة اللهب فانزلق الثعبان مسرعاً فوقها ثم فوق ذراعه وعلى كتفه، إلى أن التفّ حول عنقه. وهنا دبّ الرعب في قلب الراعي، وصرخ: «ماذا أفعل؟ يا لي من تَعِسٍ سيّء الحظّ! لقد أنقذتك، وها أنت تريد قتلي!».

فردّ الثعبان: «لا تخفْ؛ خُذني إلى بيت أبي. إنّه ملك الثعابين». غير أنّ الراعي، وقد أخذ منه الخوف كلّ مأخذٍ، راح يتهرّب، متذرّعاً بأنه لا ينبغي أن يترك خرافه. فقال الثعبان: «لن

يحدث شيء لخرافك. لا تقلق. ولنُسْرِع إلى البيت».

هكذا مضى الراعي مع الثعبان عبر الغابة، إلى أن وصلا إلى بوابة شكّلتها الثعابين بكلّ ما فيها. وعندها فحّ الثعبان الملتفّ على عنق الراعي، فتباعدت الثعابين في الحال، حتى بات يمكن لإنسان أن يمرّ من خلالها. وحين عبرا، قال الثعبان للراعي: «حين تبلغ بيت والدي سوف يعرض عليك كلّ ما ترغب فيه: الذهب، أو الفضة، أو الأحجار الكريمة. فلا تأخذ أيّاً من هذه الأشياء. واختَرْ، بدلاً منها، لغة الحيوان. سوف يتردد في البداية، لكنه سوف يعطيك إيّاها في آخر الأمر».

وفي هذه الأثناء كانا قد بلغا القصر، وقال ملك الثعابين، منتحباً: «كرمى لله، يا ولدي، أين كنت؟».

فأخبره الثعبان بما جرى، وكيف أحاطت به النار، وكيف أنقذه الراعي. فقال الملك الثعبان للراعي: «كلّ ما ترغب فيه أعطيك إياه لأنك أنقذت ولدي؟».

فأجاب الراعي: «لا أرغب في شيء سوى لغة الحيوان». فقال الملك الثعبان: «ليس ذلك بالأمر الحسن بالنسبة لك، ذلك أنني

إذا ما أعطيتك إياها، وأخبرتَ أحداً بشأنها، تموت في الحال. ولذلك فإنَّ من الأفضل لك أن تطلب شيئاً آخر».

فردّ الراعي: «إنْ كنتَ ترغب في أن تعطيني أيّ شيء، أعطني لغة الحيوان؛ فإنْ لم تَشأ أن تعطيني إياها فلست أريد شيئاً آخر، وليكن الوداع». واستدار لكي يغادر. لكن الملك الثعبان ناداه، قائلاً: «إن كنتَ ترغب في لغة الحيوان إلى هذا الحدّ، فخذها. افتح فمك».

وحين فتح الراعي فمه، نفخ الملك الثعبان في فمه، وقال: «انفخ الآن في فمي نفخة واحدة». ففعل الراعي، ثم نفخ الملك الثعبان ثانيةً في فم الراعي، حتى كررا ذلك مرّاتٍ ثلاث. عندئذٍ قال الثعبان: «لقد بتّ حائزاً لغة الحيوان، امضِ، على بركة الله، ولكن لا تخبر أحداً بذلك ولو أعطاك الدنيا وما فيها. لأنك إنْ أخبرت أحداً تموت في الحال».

وبينما كان الراعي يعود أدراجه عبر الغابة، وجد أنّه يفهم كلَّ ما كانت تقوله الطيور، والحيوانات، بل والنباتات، واحدها للآخر. وحين وصل إلى خرافه وجدها جميعاً هناك، سالمة معافاة، فاستلقى ليرتاح قليلاً. ولم يكد يفعل ذلك حتى حطَّ غرابان أو ثلاثة على شجرةٍ قريبة، وراحوا يتحدثون معاً، قائلين:

«لو عَلِمَ ذلك الراعي أنّه في تلك البقعة حيث تستلقي الخراف السود ثمة مغارة، في عمق الأرض، مترعة بالذهب والفضة!».

وحين سمع الراعي ذلك مضى إلى سيده وأخبره به. فجلب السيد عربةً، وحفر إلى أن بلغ المغارة، وعاد بالكنز. لكن السيد كان شريفاً، وأعطى الراعي الكنز كلّه، قائلاً: «خذْ، يا بنيّ، كلّ هذه الثروة لك. لأنّ الربّ أعطاك إياها. فابْنِ بيتاً، وتزوّج، وعِشْ على هذا الكنز».

هكذا، أخذ الراعي المال، وبنى بيتاً، وتزوّج، وسرعان ما أصبح أغنى رجل في المنطقة كلّها. فصار لديه راعٍ للغنم، وراعٍ للأبقار، وراعٍ للخنازير؛ وباختصار، باتت لديه أملاكٌ عظيمة وجنى من المال الكثير.

وفي مرّة، قال لزوجته، وكان عيد الميلاد قد اقترب: «أعدّي لنا بعض الشراب والطعام، سوف نقيم غداً مأدبةً للرعيان». ففعلت الزوجة ما طلبه، وفي الصباح ذهبا إلى مزرعتهما. وفي العشيّة، قال السيد للرعيان: «تعالوا، جميعاً، كلوا، واشربوا، وامرحوا، وسوف أذهب بنفسي الليلة لأرعى الماشية».

هكذا، مضى السيّد يرعى ماشيته، وزهاء منتصف الليل،

بدأت الذئاب تعوي والكلاب تنبح. كانت الذئاب تقول، بلغة الذئاب: «هل يمكن أن نأتي ونأخذ شيئاً؟ سوف تكون لكم، أيضاً، حصتكم من الفريسة».

فتردّ الكلاب، بلغة الكلاب: «تعالوا! نحن أيضاً جاهزون لأن نلتهم شيئاً».

غير أنّه كان هنالك كلب عجوز لم يَبْقَ في فمه سوى نابين اثنين. وقد صرخ هذا الكلب العجوز غاضباً: «تعالوا، أيها البائسون، إن كنتم تجرؤون. ما دام هذان النابان في فمي فلن يكون بمقدوركم أن تمسّوا أملاك سيدي».

كلّ ذلك سمعه السيد وفهمه. وفي اليوم التالي أمر بأن تُقْتَل الكلاب جميعاً ما عدا العجوز، فاحتجَّ الخدم، قائلين: «كرمى لله، يا سيّدي، حرامٌ أن يجري هذا». لكن السيد أجابهم: «افعلوا ما أمرتكم به».

وانطلق وزوجته عائدين إلى البيت. وكانا يمتطيان حصانيهما، هو على جواد رائع وزوجته على فرسٍ جميلة. لكن جواد السيد كان يعدو بسرعة أكبر مخلّفاً الزوجة وراءه بعض الشيء. ثمّ صهل جواد السيد، وقال للفرس: «تعالي، لماذا تتلكئين؟».

فأجابت الفرس: «آه، الأمر يسيرٌ عليك، فأنت لا تحمل سوى ثقل واحد، أما إنا فأحمل ثلاثة». عندها التفت الرجل إلى الوراء وراح يضحك. ورأت زوجته أنه يضحك، فحثّت الفرس أن تسرع إلى أن دنت من زوجها، وسألته: «لِمَ تضحك؟». فاكتفى بالقول لها: «لديّ سبب وجيه يدفعني لأن أضحك!». لكن الزوجة لم ترْضَ بهذا الجواب، ورَجَتْه ثانيةً أن يخبرها بما يدفعه إلى الضحك. فتهرّب، قائلاً: «كفّي عن السؤال؛ ما بكِ، يا زوجتي؟ لقد نسيتُ الآن ما الذي أضحكني».

لكن رفضه لم يزدها سوى رغبةً في أن تعرف السبب. فقال الرجل أخيراً: «إنْ قلتُ لك أموتُ في الحال!». لكن ذلك لم يلزمها الصمت، وظلّت تسأل، قائلةً: «ينبغي أن تخبرني». وفي هذه الأثناء كانا قد بلغا البيت. وعندها أمر الرجل بأن يُعَدّ له تابوت، وحين أُعِدَّ هذا التابوت، وضعه أمام البيت، ورقد فيه. ثم قال لزوجته: «الآن أخبرك لماذا ضحكت، لكنني سوف أموت لحظة أقول لك». وتطلّع من حوله مرّة أخيرة، فرأى أنَّ الكلب العجوز قد أتى من الحقل، ووقف فوق رأسه وراح ينبح. وحين لاحظ الرجل ذلك قال لزوجته: «أحضِري قطعة خبز لهذا الكلب المسكين». فأحضرت الزوجة قطعة خبز وألقتها للكلب،

لكن الكلب لم ينظر إليها، فجاء ديكٌ وراح ينقرها.

عندئذ قال الكلب للديك: «أنت لا تفكّر سوى بالأكل. هل تعلم أنّ سيدنا مُشْرِفٌ على الموت».

فردّ الديك: «ليَمُتْ، فهو شديد الغباء. لديّ مئات الزوجات، وكثيراً ما أجمعهنّ في الليالي حول بعض الحَبّ، وما إن يجتمعن هناك، حتى أنقره أنا. فإذا ما غضبت إحداهنّ، نقرتهنّ جميعاً؛ تلك طريقتي في إبقائهنّ هادئات. أمّا السيد، فعاجز عن السيطرة على زوجة واحدة!».

حين سمع الرجل ذلك، هبّ خارجاً من التابوت، وتناول عصا، ودعا زوجته إليه، قائلاً: «تعالي، سوف أخبرك بما تريدين معرفته». وما إن رأت الزوجة ما يحيق بها من خطر الضرب، حتى تركته في سلام، ولم تَعُدْ ثانية إلى سؤاله عمّا أضحكه.

شجرة التفاح الذهبية والطاووسات التسع

عاش ذات مرّة ملكٌ له ثلاثة أولاد. وأمام قصر الملك كان ثمّة شجرة تفاح ذهبية، أزهرت وأثمرت وفقدت ثمارها جميعاً في الليلة الواحدة ذاتها، من دون أن يعلم أحد من الذي أخذ تلك الثمار. وفي يوم، قال الملك لأكبر أبنائه: «ينبغي أن أعلم من الذي أخذ الثِّمار من شجرتنا!». فقال الابن: «سوف أحرسُ الشجرة في الليل، وأرى من الذي يقطف التفاح».

وحين حلّ المساء مضى واستلقى تحت شجرة التفاح، على الأرض، كي يراقب. غير أنّه حين بدأت ثمار التفاح تنضج، كان النوم قد أخذه، وحين أفاق في الصباح، لم يكن قد بقي على الشجرة ولو تفاحة واحدة. فذهب إلى والده وأخبره بما حدث. ثمّ تقدّم الابن الأوسط لحراسة الشجرة، لكنه لم يصبْ من النجاح أكثر مما أصاب أخوه الأكبر.

وعندها جاء دور ابن الملك الأصغر في الحراسة. فأعدّ العدّة

لذلك، وأحضر سريره تحت الشجرة، وغطّ في النوم مباشرةً. وقبل منتصف الليل أفاق وراح يراقب الشجرة، فرأى كيف نضج تفّاحها، وكيف أضاء سطوعه القصر كلّه. وفي تلك اللحظة طارت طاووسات تسع نحو الشجرة، وحطّت ثمان منهن على أغصانها، أمّا التاسعة فهبطت قربه وتحوّلت في الحال إلى فتاة جميلة، بل فائقة الجمال، حتى إنَّ المملكة برمّتها لم تنجب من يمكن أن تضاهيها في الحسن ولو من بعيد.

ومكثت هذه الفتاة تجاذبه أطراف الحديث اللطيف، إلى ما بعد منتصف الليل، ثمّ شكرته على التفاحات الذهبية، واستعدّت لأن تغادر، لكنه رجاها أن تترك له واحدةً، فأعطته اثنتين، واحدة له والأخرى لوالده الملك. عندئذ عادت الفتاة طاووسةً من جديد، وطارت مع الثمان الأخريات. وفي الصباح، أخذ ابن الملك التفاحتين إلى أبيه، فسُرَّ الملك كثيراً، وراح يمتدح ولده. وحين حلّ المساء، عاد ابن الملك الأصغر إلى اتّخاذ مكانه تحت شجرة التفاح لكي يحرسها. ومرّة أخرى تجاذب أطراف الحديث مع الفتاة الجميلة كما فعل في الليلة السابقة، وجلب لأبيه، في الصباح التالي، تفاحتين كما فعل أول مرّة.

غير أنّ الحسد راح يعتمل في صدر أخويه، بعد النجاح الذي أحرزه على مدى ليالٍ عدّة، إذ أفلح بما لم يستطيعا أن يحققا فيه أيّ فلاح. وفي النهاية وجدا امرأةً عجوزاً، وعدتهما إن تكشف لهما كيف يفلح أخوهما في جَلْبِ التفاحتين. وحين حلَّ المساء، تسللت العجوز بخفّةٍ تحت السرير الذي نُصِبَ تحت شجرة التفاح، ومكثت هناك مختبئة. وبعد قليل، جاء ابن الملك أيضاً، واستلقى هناك كعادته ونام. وزهاء منتصف الليل طارت الطاووسات التسع كما من قبل، وحطّت ثمان منهن على الأغصان، والتاسعة وقفت بقرب السرير، وتحوّلت إلى فتاة فائقة الحسن.

عندئذٍ مـدّت العجوز يدها بهدوء وأمسكت بخصلةٍ من خصلات الفتاة، وانتزعتها، فنهضت الفتاة في الحال، وعادت طاووسةً من جديد وطارت، وتبعتها البقية، حتى اختفين جميعاً. فقفز ابن الملك، وصاح: «ما هذا؟». وحين نظر تحت السرير، رأى العجوز، فسحبها من هناك. وفي الصباح، أمرَ بأن تُربَط إلى ذيل حصان، وتُمَزَّق إرباً. لكن الطاووسات لم يَعُدن ثانيةً، وحزن ابن الملك أشدّ الحزن وأطوله، وراح يبكي ما ضاع منه. وفي النهاية قرر أن يمضي

باحثاً عن طاووسته؛ وصمّم ألا يعود ما لم يجدها. وحين أفضى للملك أبيه بما عزم عليه، رجاه الملك ألا يذهب، وقال إنّه سيجد له فتاةً جميلة أخرى، وإنَّ بمقدوره أن يختار من يشاء في المملكة كلها.

غير أنَّ حجج الملك لم تُجْـدِ نفعاً، فمضى ابنه في الدنيا يبحث عن طاووسته، ولم يأخذ معه سوى خادم واحد يقوم على خدمته. وبعد أسفارٍ كثيرة وصل ذات يوم إلى بحيرة. وبقرب هذه البحيرة كان يقوم قصر منيف وجميل. وكانت تعيش في هذا القصر ملكة عجوز، ومعها فتاة، هي ابنتها. فقال للعجوز: «بحقّ السماء، يا جدتي، هل تعلمين أيّ شيء عن تسع طاووسات ذهبيات؟». فأجابته العجوز: «آه، يا بنيّ، أعرف عنهن كلّ شيء؛ فهن يأتين منتصف كلّ يوم ليغتسلن في البحيرة. ولكن ما شأنك بهنّ؟ دَعْكَ منهن، تلك ابنتي فتاة جميلة! ووليّة العهد! وسوف تؤول إليك ثروتي كلّها إذا ما تزوّجتها». غير أنه كان يتحرّق رغبةً في أن يرى الطاووسات، فلم يصغِ لما كانت تقوله العجوز عن ابنتها.

وفي الصباح التالي، عند الفجر، أعدّ الأمير العدّة للنزول إلى البحيرة وانتظار الطاووسات. لكن الملكة العجوز رشَت

خادمه وأعطته وسادتين صغيرتين، وقالت: «أترى هاتين الوسادتين؟ حين تصل البحيرة ضعهما خفيةً خلف عنقه، وسوف يغطّ في النوم، فلا يقدر أن يكلّم الطاووسات».

وفعل الخادم الشرير كما قالت العجوز؛ وحين نزل إلى البحيرة مع سيّده، وجد الفرصة لأن يدفع بالوسادتين خلف عنقه، فغطّ الأمير المسكين في نومٍ يشبه الموت. وبعد قليل، جاءت الطاووسات التسع طائراتٍ، فحطّت ثمان منهن على البحيرة، أما التاسعة فطارت نحوه وهو جالس على صهوة حصانه، وربتت عليه، محاولةً أن توقظه. «أَفِقْ، يا حبيبي! أَفِقْ، يا قلبي! أَفِق، يا روحي!». لكنه لم يعرف أيّ شيء عن كلّ ذلك، كأنّه كان ميتاً. وبعد أن استحممن، طرن جميعاً مبتعدات، وحين أفاق الأمير كنّ قد مضين، فقال لخادمه: «ما الذي جرى؟ ألم يأتين؟». فأخبره الخادم أنّهن قد جئن، وأنّ ثماني منهن قد استحممن، أما التاسعة فقد حطّت قربه على الحصان، وربتت عليه وحاولت إيقاظه. فغضب ابن الملك أشدّ الغضب وكاد أن يقتل نفسه من شدّة الغيظ.

وفي الصباح التالي نزل ثانيةً إلى شاطئ البحيرة لينتظر الطاووسات، وسار معتلياً صهوة حصانه فترةً طويلة مما أتاح لخادمه فرصةً جديدةً لأن يدفع الوسادتين خلف عنقه، فغطّ

مرّة أخرى في نومٍ كأنه المـوت. و لم يكد يغفو حتى جاءت الطاووسات طائرات، فحطّت ثمانٍ منهن على الماء، أمّا التاسعة فحطّت بقربه على حصانه وربتت عليه وصاحت لكي توقظه: «أَفِق، يا حبيبي! أَفِق، يا قلبي! أَفِقْ، يا روحي!».

لكن ذلك لم يُجْدِ نفعاً؛ فالأمير كان نائماً كأنّه ميّت. فقالت للخادم: «أَخْبِر سيّدك أنَّ بمقدوره أن يرانا هنا في الغد، أمّا بعد ذلك فلا». ومع هذه الكلمات طارت الطاووسات مبتعدات. وحين أفاق ابن الملك، سأل الخادم في الحال: «أَلَم يجئن؟». فأجاب الخادم: «بلى، لقد جئن، وقلن إنَّ بمقدورك أن تراهن في الغد، في هذا المكان، أمّا بعد ذلك فلن يَعُدْنَ ثانيةً». وحين سمع الأمير الشقيّ ذلك، لم يَدْرِ ما يفعله بنفسه، وفي غمرة اضطرابه وبؤسه راح يشدّ شعره.

وفي اليوم الثالث نَزَل من جديد إلى الشاطئ. لكنه، خشية أن يغطّ في النوم، راح يحثّ حصانه على العدو السريع على طول الشاطئ، و لم يترك له أن يسير الهوينى. لكن خادمه لم يعدم فرصةً لدفع الوسادتين خلف عنقه، ومن جديد غطّ الأمير في النوم. وما هي إلا لحظة حتى جاءت الطاووسات التسع، وحطّت ثمانٍ منهن على البحيرة والتاسعة بقربه، على حصانه، وراحت توقظه،

مربّتةً عليه. «أَفِقْ، يا حبيبي! أَفِق، يا قلبي! أَفِقْ، يا روحي!».
لكنَّ ذلك كان بلا طائل، إذ مضى في نومه كأنّه ميت. عندئذ قالت الطاووسة للخادم: «حين يستيقظ سيدك قُلْ له إنَّ عليه أن يضرب رأس المسمار من جزئه الأدنى، وعندئذٍ سوف يجدني».
وفي الحال طارت الطاووسات جميعاً. وعندما أفاق ابن الملك، قال لخادمه: «هل جئن؟». فأجاب الخادم: «أجل، والتي حطّت على حصانك أَمَرَتني أن أقول لك أن تضرب رأس المسمار من جزئه الأدنى، وعندئذٍ سوف تجدها». وحين سمع الأمير ذلك، سحب سيفه وقطع رأس خادمه.

بعدها راح الأمير يطوف في الدنيا وحيداً، وبعد سفرٍ طويل، وصَلَ إلى جَبَلٍ وقضى الليل بطوله هناك مع ناسكٍ، سأله إنْ كان يعلم أي شيء عن الطاووسات التِّسْع. فقال الناسك: «أوه! يا بنيّ، أنت محظوظ؛ لقد ساقك الله في الطريق الصحيح. إنّه مسير نصف يوم وحسب من هنا. لكنَّ عليك أن تمضي على نحوٍ مستقيم، إلى أن تصل بوابة ضخمة، عليك أن تجتازها؛ وبعد ذلك، عليك أن تنعطف إلى اليمين، وسوف تصل مدينة الطاووسات، وهناك ستجد قصرهن». هكذا، نهض ابن الملك في الصباح التالي، وأعدّ العدّة للذهاب، ثم شكر الناسك

ومضى كما قال له. وبعد فترةٍ بلغَ البوابة الضخمة، وحين اجتازها انعطف إلى اليمين، فلاحت له المدينة، ورأى كيف كانت تأتلق بالبياض في أوج النهار، فسُرَّ كثيراً. وحين وصل إليها وجد القصر حيث تعيش الطاووسات التّسع الذهبيات. لكنَّ حارساً أوقفه عند بوابة القصر وسأله من يكون، ومن أين أتى. وحين أجاب عن هذين السؤالين، مضى الحارس ليعلم الملكة بذلك. وما إن سمعت الملكة مَنْ هو حتى هرعت خارجةً من البوابة وأمسكت بيده وأدخلته القصر. كانت شابة وجميلة، ولذلك عمَّ فَرَحٌ عظيم حين تزوّجها، بعد بضعة أيام، ومكث هناك.

وفي يوم، بعد فترة من زواجهما، خرجت الملكة تتمشّى، وبقي ابن الملك في القصر. غير أنّ الملكة كانت قد أعطته، قبل خروجها، مفاتيح اثني عشر سرداباً، وقالت له: «يمكنك أن تنزل وتدخل هذه السراديب جميعاً عدا الثاني عشر، فلا ينبغي أن تفتحه بأيّ حالٍ من الأحـوال، لأنّ ثمن ذلك رأسك». وعندئذٍ مضت. أمّـا ابن الملك فراح يتساءل، وقد بقي في القصر، ما عساه يكون في السرداب الثاني عشر، ثم مضى يفتح السراديب واحداً إثر آخر. وحين بلغ السرداب الثاني عشر لم

يُرِدْ في البداية أن يفتحه، لكنَّ السؤال راح يلحّ عليه لماذا حُظّر عليه الدخول إلى هذا السرداب. وقال في نفسه: «ما الذي يمكن أن يكون في هذا السرداب؟». وفي النهاية، فتحه.

وفي وسط السرداب كان ثمّة برميل كبير وفيه ثقب مفتوح، لكنه ثُبِّت بإحكام بثلاثة أطواق حديدية. ومن ذلك البرميل، خرج صوتٌ، يقول: «كرمى لله، يا أخي -أكاد أموت من الظمأ- أرجوك أعطني شربة ماء!»، فأخذ ابن الملك كوباً وملأه ماءً، وأفرغه في البرميل. وما إن فعل ذلك حتى تمزّق الطوق الأول. وجاء الصوت ثانيةً من البرميل: «كرمى لله، يا أخي -أكاد أموت من الظمأ- أرجوك أعطني شربة ماء!»، ومن جديد أخذ ابن الملك الكوب وملأه، وصبَّ الماء في البرميل، فتمزّق في الحال طوقٌ آخر. وللمرّة الثالثة خرج الصوت من البرميل: «كرمى لله، يا أخي -أكاد أموت من الظمأ- أرجوك أعطني شربة ماء!»، ومن جديد أخذ ابن الملك الكوب وملأه، وصبَّ الماء في البرميل، فتمزّق الطوق الثالث. وعندئذٍ تفتّت البرميل، وطار تنّين خارجاً من السرداب، وأمسك بالملكة على الدرب وحملها معه.

عندئذٍ، جاء الخادم الذي كان مع الملكة مسرعاً، وأخبَرَ

ابن الملك بما جرى، فلم يعلم الأمير البائس، من شدّة يأسه وندمه، ما الذي يفعله بنفسه. غير أنّه عزم، في النهاية، على أن يخرج ويجوب العالم بحثاً عنها. وبعد سفرٍ طويل، وصل في يوم إلى بحيرة، ورأى بقربها، في حفرةٍ صغيرة، سمكةً صغيرةً تنطّ وتقفز. وحين رأت السمكة ابن الملك، راحت ترجوه مستعطفةً: «كرمى لله، كُنْ أخي، وألْقِ بي في الماء. وقد أنفعك في يوم من الأيام، فخذْ حرشفةً صغيرة من حراشفي، وحين تحتاج إليّ، حكّها بلطف». عندئذٍ، رفع ابن الملك السمكة الصغيرة من الحفرة وألقاها في الماء، بعد أن أخذ حرشفة صغيرة من حراشفها، ولفّها بعناية في منديل. وبعد حين، أثناء سفره في أرجاء الدنيا، صادف ثعلباً واقعاً في شركٍ من الحديد. وحين رأى الثعلب الأمير، قال له: «باسم الله، كن أخي، وساعدني لأخرج من هذا الشرك. وقد تحتاج إليّ ذات يوم، فخذ شعرةً واحدةً من ذيلي، وحين تريدني، حكّها بلطف». فأخذ ابن الملك شعرة من ذيل الثعلب، وفكّ أسره.

ومن جديد، حين كان يعبر جبلاً، وجد ذئباً واقعاً في فخٍّ، وحين رآه الذئب، قال له: «كُنْ أخي؛ باسم الله، وأَطلقني، وذات يوم سوف أساعدك. خُذْ شعرة مني وحسب، وحين تحتاج إليّ،

حكّها بلطف». فأخذ شعرة، وأطلق الذئب.

بعدئذٍ، مضى ابن الملك في سفرةٍ طويلة، إلى أن التقى ذات يومٍ رجلاً، قال له: «كرمى لله، يا أخي، هل سمعت أحداً يشير إلى مكان قصر الملك التنين؟». فحدّد له الرجل بدقّة وجهة سيره، والمدة اللازمة لكي يصل إلى هناك. فشكره ابن الملك وواصل رحلته إلى أن بلغ المدينة حيث يعيش التنين. وهناك، مضى إلى القصر حيث وجد زوجته، فسُرَّا كثيراً للقاء أحدهما الآخر، وراحا يتشاوران كيف يمكنهما الفرار. وقرّ قرارهما على أن يهربا، وأسرعا يعدّان للرحلة. وحين بات كلّ شيء جاهزاً امتطيا صهوة حصان وراحا يحثّانه على أن يسرع في العَدْو. وما إن ذهبا حتى عاد التنين على صهوة حصانٍ أيضاً، وبينما كان يدخل قصره، وجد أنّ الملكة قد فرّت. فقال لحصانه: «ماذا نفعل الآن؟ هل نأكل ونشرب، أم نذهب خلفهما في الحال؟». فأجاب الحصان: «دعنا نأكل ونشرب أولاً، وسوف نلحق بهما في جميع الأحوال؛ فلا تقلق».

بعد أن تناول التنين غداءه امتطى حصانه، ولم تمضِ لحظات قليلة حتى لحق بالهاربين. فأخذ الملكة من ابن الملك وقال له: «اذهب

الآن، باسم الله! فإني أغفر لك هذه المرّة لأنك سقيتني في السرداب، ولكن إذا كانت حياتك عزيزة عليك فلا تَعُدْ إلى هنا ثانيةً!».

فسار الأمير التَّعِسُ في طريقه قليلاً، لكنه لم يستطع أن يحتمل أكثر، فعاد في اليوم التالي إلى قصر التنين، ووجد الملكة جالسةً وحيدةً وهي تبكي. وراحا من جديد يتشاوران كيف يمكن أن يفرّا. وقال الأمير: «حين يأتي التنين، سليه من أين أتى بذلك الحصان، ثم أخبريني بذلك كي أبحث عن مثيلٍ له، لعلّنا نتمكّن بهذه الطريقة من الهرب». ثم ذهب من هناك، لئلا يأتي التنين ويراه مع الملكة.

وسرعان ما أتى التنين، فشرعت الملكة تلاطفه، وتكلّمه بعذوبةٍ عن أشياء كثيرة، إلى أن قالت أخيراً: «آه! يا للحصان الرائع الذي لديك! من أين أتيت بهذا الحصان الباهر؟». فأجاب: «أوه! لا يستطيع أيّ كان أن يأتي بحصان من حيث أتيتُ به! ففي الجبل الفلانيّ تعيش امرأة عجوز في إصطبلها اثنا عشر حصاناً، لا يمكن لأحدٍ أن يقول أيها الأَروع، فكلها بالغة الجمال. غير أنّه في إحدى زوايا الإصطبل يقف حصان يبدو كأنّه مجذوم، لكنه في الحقيقة أفضل حصان في الدنيا. وهو شقيق حصاني، ومن يناله قد يبلغ عنان السماء. لكن من

يرغب في الحصول على حصان من تلك العجوز، عليه أن يقوم على خدمتها ثلاثة أيام بلياليها. فعند هذه العجوز فَرَس لديها فِلوّ، وكلُّ مَنْ يحرس لها هذه الفرس وهذا الفلو ثلاث ليال يكون له الحقّ في أن يأخذ أفضل حصان في الإصطبل. غير أنّ كلّ من يحرس الفرس ولا يفلح في ذلك، لابدَّ من أن يُقْطَع رأسه».

وفي اليوم التالي، عندما خرج التنين، أتى ابن الملك، وأخبرته الملكة بكل ما علمت من التنين. فمضى ابن الملك قاصداً الجبل ووجد العجوز، ودخل بيتها محيّياً: «كان الله في عونك، أيتها الجـدّة!». فأجابت: «كان الله في عونك، أيضاً، يا ولدي! ماذا تريد؟». فقال: «أريد أن أخدمك». فقالت العجوز: «حسنٌ، يا ولدي، إنْ حرست فرسي ثلاثة أيام بلياليها فسوف أعطيك أفضل حصان لديّ، ويمكنك أن تختاره بنفسك، أما إنْ أخفقت في حراسة الفرس فسوف يُقْطَع رأسك».

وقادته بعد ذلك إلى الفناء، حيث نُصِبَت أوتـادٌ في كلّ مكان، وعلى كلٍّ منها رأس رجل، ما عدا واحداً، لم يكن عليه رأس، وكان يصرخ بإلحاح: «آه، يا جدتي، أَعْطِني رأساً!».

وحين أَرَتِ العجوزُ الأميرَ كلَّ ذلك، قالت: «انظر! هذه كلّها رؤوسُ مَنْ حاولوا حراسة فرسي، قُطِعَتْ جزاءً لهم!».

غير أنّ الأمير لم يجزع، ومكث ليخدم العجوز. وحين حلّ المساء اعتلى ظهر الفرس وأخذها إلى الحقل، يتبعهما الفلو. وظلّ الأمير معتلياً ظهر الفرس، إذْ قرّ قراره على ألا ينزل عن صهوتها، كي يظلّ واثقاً من وجودها. غير أنه نام قليلاً قبل منتصف الليل، وحين أفاق وجد نفسه جالساً على سور واللجام بيده، فتملّكه عندئذٍ أشدّ الفزع، ومضى في الحال يبحث عن الفرس، وفي أثناء ذلك، وصل إلى بركة ماء. وحين وقعت عيناه على الماء تذكّر السمكة الصغيرة، فأخذ الحرشفة من المنديل وحكّها قليلاً. وفي الحال ظهرت السمكة الصغيرة وقالت: «ما الأمر، يا أخي؟»، فأجابها: «فرس العجوز قد فرّت مني ولا أعلم أين هي». فقالت السمكة: «ها هي، لقد تحولت إلى سمكة، وفلوها إلى سمكة أصغر. ولكن اضرب باللجام على الماء مرّة واصرخ: هييه! يا فرس العجوز!». ففعل الأمير كما قالت، وفي الحال خرجت الفرس، مع الفلو، من الماء إلى الشاطئ. فوضع الأمير اللجام على الفرس وامتطى صهوتها ومضى بها إلى بيت العجوز، يتبعهما الفلو. وحين

وصل إلى هناك قدّمت له العجوز الفطور؛ لكنها أخذت الفرس إلى الإصطبل وضربتها بمِسْعَر الجمر، قائلةً: «لماذا لم تنزلي بين الأسماك، أيتها الفرس اللعينة؟». فأجابت الفرس: «لقد نزلت إلى الأسماك، لكن الأسماك أصدقاؤه أخبروه عني». فقالت العجوز عندئذٍ: «امضِ بين الثعالب إذاً!».

وحين حلّ المساء امتطى ابن الملك صهوة الفرس وساقها إلى الحقل، والفلو يتبع الفرس، ومن جديدٍ جلس على ظهرها إلى زهاء منتصف الليل، ثمّ غطّ في النوم كما من قبل. وحين أفاق، وجد نفسه ممتطياً السور وممسكاً بيده اللجام. فتملّكه الفزع، ومضى يبحث عن الفرس. وأثناء ذلك تذكّر ما قالته العجوز للفرس، وأخذ من المنديل شعرة الثعلب وفَرَكها قليلاً بين أصابعه. وفي الحال وقف الثعلب أمامه، وسأله: «ما الأمر، يا أخي؟»، فقال: «فرس العجوز قد هربت، ولا أعلم أين تكون». فأجاب الثعلب: «إنها معنا؛ لقد تحولت إلى ثعلب، والفلو إلى جرو؛ فاضرِبْ باللجام الأرض ضربةً واحدة وصِحْ: هييه! يا فرس العجوز!». فضرب ابن الملك باللجام الأرض وصاح: «هييه! يا فرس العجوز!»، فأتت الفرس ووقفت، مع فلوها، بقربه. فوضع لها اللجام، وامتطاها وعاد بها،

والفلو يتبع الفرس. وحين وصل قدّمت له العجوز الفطور، لكنها أخذت الفرس إلى الإصطبل وضربتها بالمِسْعَر، وهي تصيح: «إلى الثعالب، أيتها اللعينة! إلى الثعالب!». فأجابت الفرس: «كنتُ مع الثعالب، لكنهم أصدقاؤه، وأخبروه أنني هناك!». فصاحت العجوز: «إنْ كان الأمر كذلك، فلتمضِ بين الذئاب!».

وحين هبط الظلام ثانيةً ركب ابن الملك الفرس وساقها إلى الحقل، والفلو يخب إلى جانبها، وثانيةً جلس ساكناً على ظهر الفرس إلى زهاء منتصف الليل، ثمَّ غلبه النعاس وغطّ في النوم كما في الليلتين الماضيتين، وحين أفاق، وجد نفسه ممتطياً السور، ممسكاً بيده اللجام، كما في السابق. فمضى متعجلاً، كما من قبل، يبحث عن الفرس. وأثناء ذلك تذكّر ما قالته العجوز للفرس، وأخذ شعرة الذئب من منديله وفركها قليلاً. فحضر الذئب إليه وسأله: «ما الأمر، يا أخي؟»، فأجاب: «فرس العجوز هربت، ولا أعلم أين هي». فقال الذئب: «ها هي معنا، لقد تحولت إلى ذئب، والفلو إلى جرو». اضربْ باللجام الأرض مرّةً وصِحْ: هييه! يا فرس العجوز!». ففعل ابن الملك كذلك،

وفي الحال جاءت الفرس ثانيةً ووقفت والفلو إلى جانبها. فلجمها، وعاد مسرعاً إلى البيت، والفلو يتبعهما. وحين وصل قدّمت له العجوز الفطور، لكنها ساقت الفرس إلى الإصطبل وضربتها بالمِسْعَر، وهي تصيح: «إلى الذئاب، قلتِ لك، أيتها البائسة!»، فأجابت الفرس: «لقد ذهبتُ إلى الذئاب؛ لكنهم أصدقاؤه، وأخبروه بأمري!».

فخرجت العجوز من الإصطبل، وقال لها ابن الملك: «أيتها الجدّة، لقد خدمتك بأمانة؛ فأعطيني الآن ما وعدتني به». فأجابت العجوز: «يا بنيّ، الوعد لابدّ من إيفائه. فانظر إليّ: ها هنا الجياد الاثنا عشر، اختر منها ما تشاء!». فقال الأمير: «لماذا أدقّق؟ فقط أعطني ذلك الحصان المجذوم في الزاوية! فالجياد الجميلة لا تلائمني!». لكن العجوز حاولت أن تقنعه بأن يختار حصاناً آخر، وقالت: «كيف يمكنك أن تكون غبياً على هذا النحو فتختار هذا المجذوم وأمامك مثل هذه الجياد الرائعة؟». لكنه بقي مصرّاً على اختياره الأول، وقال للعجوز: «عليكِ أن تعطيني ما أختاره، هذا ما وعدتِ به». وحين وجدت العجوز أنها عاجزة عن أن تثنيه عن عزمه، أعطته الحصان الجَرْبَان، فاستأذنها بالانصراف، ومضى في سبيله،

يقود الحصان بالرَّسَن.

وحين وصل إلى غابةٍ مسَح جسم الحصان وفَرَكَه، فراح يشعّ ويسطع كالذهب. وعندئذٍ امتطاه، فطار به الحصان مسرعاً مثل طائر، وفي ثوانٍ قليلة وصل به إلى قصر التنين. فدخل ابن الملك وقال للملكة: «استعدي بأسرع ما يمكنك!». فاستعدّت بسرعةٍ، وامتطيا معاً صهوة الحصان، وشرعا في رحلة عودتهما إلى البيت. وسرعان ما عاد التنين، وحين رأى أنّ الملكة قد اختفت، قال لحصانه: «ماذا أفعل؟ هل نأكل ونشرب أولاً، أم نلحق بهما في الحال؟». فأجاب الحصان: «سواء أكلنا وشربنا أم لا، فلن نلحق بهما قطّ».

حين سمع التنين ما قاله الحصان، سارع إلى امتطائه وراح يعدو خلفهما مسرعاً. وحين رأى ابن الملك والملكة التنين في أعقابهما، راحا يحثّان الحصان على مزيد من السرعة، لكنه قال لهما: «لا تخافا! فلا حاجة للهرب!». وما هي إلا بضع لحظات حتى اقترب منهما التنين أشدّ الاقتراب، فقال حصانه لحصانهما: «كرمى لله، يا أخي، انتظر لحظة! سوف أموت من الركض وراءك!». فأجاب حصانهما: «هل بلغ بك الغباء أن تحمل ذلك السيد؟ ارفع عقبيك وألْقِه عن ظهرك وتعال

معنا!». وحين سمع حصان التنين ذلك هزّ رأسه غاضباً ورفع عقبيه عالياً في الهواء، فسقط التنين وتمزّق إرباً، وجاء حصانه إليهما، فامتطته الملكة وعادت مع ابن الملك سعيدة إلى مملكتها التي حكماها معاً في ازدهار عظيم إلى يوم مماتهما.

«بابالّوغا» أو الخفّ الذهبيّ

بينما كانت بعض الفتيات القرويات يغزلن وهنَّ يرعين الماشية قرب وادٍ عميق، اقترب منهنّ شيخ بلحية بيضاء طويلة -بلغت من الطول إلى حدّ أنها وصلت حزامه- وقال: «يا بنات، يا بنات، انتبهن إلى ذلك الوادي العميق! لو أسقطت واحدة منكن مغزلها من ذلك الجرف، فسوف تتحول أمّها إلى بقرةٍ في الحال!».

وما إن حَذّرهنّ الشيخ على هذا النحو، حتى مضى في سبيله ثانيةً. لكن الفتيات اللواتي تعجّبْنَ أشدّ التعجبّ مما قاله لهنّ، دَنَوْنَ من الوادي وانحنين فوقه ينظرن فيه؛ وبينما هنّ يفعلن ذلك تَرَكَتْ إحداهنّ -وهي أجملهنّ- مغزلها يسقط من يدها، فهبط إلى قعر الوادي.

وحين عادت في المساء إلى البيت وجدت أمّها وقد تحولت إلى بقرة قائمة أمام المنزل؛ فبات عليها منذ ذلك الحين فصاعداً أن تسوق هذه البقرة إلى المرعى مع بقية القطيع. ولم يمضِ وقت طويل حتى تزوج والد الفتاة من أرملةٍ، جلبت معها ابنتها إلى

البيت. وسرعان ما كرهت هذه الخالة ابنة زوجها، لأنها كانت أجمل من ابنتها بما لا يُقاس. فمنعتها من أن تستحم أو تسرّح شعرها أو تبدّل ثيابها، وسعت بكلّ وسيلة ممكنة لأن تعذّبها وتعنّفها. وفي يوم من الأيام أعطتها حقيبةً ممتلئةً بالقنّب، وقالت لها: «إنْ لم تغزلي كلّ هذا القنّب جيداً وتلفّينه، لا تعودي إلى البيت، لأنك إن عدتِ قتلتك».

سارت الفتاة المسكينة خلف القطيع وهي تغزل بأقصى سرعتها، لكنها عند منتصف النهار راحت تبكي وتنتحب، بعد أن رأت هزال قدرتها على الغزل. وحين رأتها البقرة، أمّها، تنتحب، سألتها عن الأمر، فأخبرتها الفتاة بكلّ شيء. وعندئذٍ واسَتْها البقرة، وقالت لها ألا تقلق. وقالت: «سوف آخذ القنّب في فمي وأمضغه وسوف يخرج من أذني كخيطٍ، يمكنك أن تسحبيه وتلفّيه على العود في الحال». وهذا ما حصل. راحت البقرة تمضغ القنّب والفتاة تسحبه من أذنها وتلفّه، وسرعان ما أتمّت تلك المهمّة بأكملها.

وحين عادت الفتاة إلى البيت في المساء، وأخذت إلى زوجة أبيها القنّب كلّه، وقد غزلته، ذُهلت هذه الأخيرة أشدّ الذهول، وفي الصباح التالي أعطتها مزيداً من القنّب كي تغزله وتلفّه.

وحين عادت في المساء بذلك القنّب وقد غزلته ولفّته ظنّت زوجة أبيها أنّ بعض الفتيات، صديقاتها، يساعدنها. فأعطتها في اليوم الثالث ما يزيد كثيراً على ما سبق لها أن أعطتها إيّاه. وحين مضت الفتاة مع البقرة إلى المرعى، أرسلت المرأة ابنتها خلفها لترى من يساعدها. فمضت هذه الفتاة بهدوء خلف ابنة زوج أمها كي لا تحسّ بها، ورأت البقرة تمضغ القنّب والفتاة تسحب الخيط من أذنها وتلفّه، فأسرعت إلى البيت وأخبرت أمها بما رأته. وعندئذٍ ألحّت الخالة على زوجها أن يقتل البقرة. فعارضها في البداية؛ لكنه، وقد رأى أنها لن تدعه في سلام، وافق في النهاية أن يفعل ما أرادت، وحدّد اليوم الذي سيقتل فيه البقرة. وما إن سمعت ابنته بذلك حتى طفقت تبكي، وحين سألتها البقرة عن سبب بكائها أخبرَتْها بالأمر كلّه. لكن البقرة قالت: «اهدئي! كفّي عن البكاء! وعندما يقتلونني احرصي فقط ألاّ تأكلي من لحمي البتّة، وتأكدي من أن تجمعي عظامي كلّها وتدفنيها خلف البيت، وكلما احتجتِ شيئاً تعالي إلى قبري وسوف تجدين عوناً». وهكذا، حين قتلوا البقرة رفضت الفتاة أن تأكل من اللحم، وقالت إنها ليست جائعة، ثم جمعت العظام كلّها بعنايةٍ ودفنتها خلف الدار، في البقعة التي أشارت إليها البقرة.

كان اسم هذه الفتاة الحقيقيّ ماري، لكن عملها الكثير، في

حَمْل الماء والطبخ وغسل الأطباق وكَنْس البيت والقيام بكلّ ضروب العمل المنزلي، وارتباطها الوثيق بالنار والرماد، كلّ ذلك دفع زوجة أبيها وابنتها لأن تدعوانها «سندريلا» (بابالّوغا).

وفي يومٍ من الأيام استعدّت زوجة الأب للذهاب مع ابنتها إلى الكنيسة، لكنها قبل أن تخرج نثرت في أرجاء البيت سلّةً من الذرة، وقالت لابنة زوجها: «سندريلا! إنْ لم تجمعي كلّ هذه الذرة وتعدّي الغداء قبل عودتنا، قَتَلْتُك!».

وحين مضتا إلى الكنيسة راحت الفتاة تبكي، وقالت لنفسها: «من السهل أن أعدّ الغداء. سوف أعدّه في الحال؛ ولكن من الذي يستطيع أن يجمع كلّ هذا القدر من الذرة!» وتذكّرت في تلك اللحظة ما قالته البقرة، إذا ما احتاجت شيئاً أن تذهب إلى قبرها وسوف تجد هنالك عَوْناً، فأسرعت إلى تلك البقعة، وما الذي تحسبون أنها رأته هناك؟ كان على القبر صندوق كبير ممتلئ بشتى أنواع الملابس الثمينة، وفوق الصندوق جلست حمامتان بيضاوان، قالتا: «ماري، أَخْرِجي من هذا الصندوق ما تفضلينه من الثياب وارتديها، ثم امضِ إلى الكنيسة؛ وفي هذه الأثناء سوف نلتقط حبّات الذرة ونرتّب كلّ شيء». سُرَّت الفتاة كثيراً، وأخذت أولى الثياب التي وقعت عليها يدها، وكانت من الحرير

جميعاً، فارتدتها ومضت إلى الكنيسة. وهناك تعجّب الجميع، رجالاً ونساءً، لجمالها وروعة ملابسها، لكن أحداً لم يعلم من تكون أو من أين أتت. وراح ابن الملك، الذي تصادف وجوده هناك، يرنو إليها طوال الوقت مفتوناً بها. وقبل نهاية الصلاة نهضت سندريلا وخرجت من الكنيسة بهدوء، ثم أسرعت عائدةً إلى البيت. وما إن وصلت حتى خلعت ثيابها الجميلة وأعادتها ثانية إلى الصندوق، الذي لم يلبث أن انغلق واختفى.

عندئذ هُرِعَت عائدةً إلى الموقد فوجدت الغداء جاهزاً تماماً، والذرة كلّها قد جُمِعَت، وكلّ شيء في أحسن ترتيب. وسرعان ما عادت زوجة الأب وابنتها من الكنيسة، ودُهِشتا كثيراً إذ وجدتا أنّ الذرة قد جُمِعَت والأشياء كلّها قد رُتِّبَت.

وفي الأحد التالي ارتدت زوجة الأب وابنتها ملابسهما بغية الخروج إلى الكنيسة، وقبل أن تمضيا، نثرت زوجة الأب مزيداً من الذرة على الأرضية، وقالت لابنة زوجها: «إن لم تجمعي كلّ هذه الذرة، وتعدّي الغداء، قتلتك».

وحين ذهبتا، هُرِعَت الفتاة في الحال إلى قبر أمّها، وهناك وجدت الصندوق مفتوحاً كما في المرّة السابقة، والحمامتين جاثمتين على غطائه. فقالت لها الحمامتان: «البسي، يا ماري، واذهبي إلى

الكنيسة؛ سوف نلتقط الذرة كلّها ونرتّب كلّ شيء». فأخذت ماري من الصندوق ملابس فضية، وارتدتها، ومضت إلى الكنيسة. وفي الكنيسة، أُعجِب بها الجميع أيّما إعجاب، كما من قبل، ولم يزح ابن الملك بصره عنها. وقبل انتهاء الصلاة بقليل نهضت الفتاة ثانيةً بكلّ هدوء وتسللت عبر الجَمْع. وحين خرجت من الكنيسة عَدَت مسرعةً، ثمّ خلعت ملابسها، ووضعتها في الصندوق، ومضت إلى المطبخ. ولمّا عادت زوجة الأب وابنتها، دُهشتا أكثر من ذي قبل، فالذرة كانت قد جُمعَت، والغداء قد أُعِدّ، وكلّ شيء في أحسن ترتيب. وتعجّبتا كثيراً كيف جرى ذلك كلّه.

وفي الأحد الثالث ارتدت زوجة الأب ملابسها لتخرج مع ابنتها إلى الكنيسة، ومن جديد بعثرت الذرة على الأرض، ولكن بكمية أكبر بكثير من المرتين السابقتين. وقبل أن تخرج قالت لابنة زوجها: «إنْ لم تجمعي كلّ هذه الذرة، وتعدّي الغداء، وترتّبي كلّ شيء قبل أن أعود من الكنيسة، قتلتك!». وما إن ذهبتا حتى هُرَعت الفتاة إلى قبر أمّها، ووجدت الصندوق مفتوحاً والحمامتين جاثمتين على الغطاء. فقالت لها الحمامتان أن تلبس وتذهب إلى الكنيسة، ولا تهتمّ لأمر الذرة أو الغداء.

وفي هذه المرة انتقت الفتاة من الصندوق ملابس من الذهب

الخالص، وحين ارتدتها مضت إلى الكنيسة. وهناك راح الجميع ينظرون إليها معجبين بها أشدّ الإعجاب. وكان ابن الملك قد عزم على ألا يدعها تتسلل كما في السابق، وعلى أن يراقبها أنّى اتجهت. ولذلك، عندما أوشكت الصلاة على الانتهاء، ونهضت الفتاة كي تغادر الكنيسة، تبعها ابن الملك، لكنه لم يلحق بها. غير أنَّ ماري، وهي تشقّ طريقها عبر الجَمْع متعجّلةً، فقدت فردة خفّها اليمنى و لم يكن لديها ما يكفي من الوقت كي تبحث عنها. ووجد ابن الملك الخفّ، فالتقطه. وحين وصلت الفتاة إلى البيت خلعت ملابسها الذهبية ووضعتها في الصندوق، ومضت في الحال إلى الموقد في المطبخ.

طاف ابن الملك، الذي عَزَم على أن يجد الفتاة، أرجاء المملكة كلّها، طالباً من كلّ فتاة فيها أن تجرّب الخفّ، فكان يأتي واسعاً في بعض الأحيان، وضيّقاً في أحيان أخرى، و لم يلائم، في الحقيقة، أيّاً منهنّ. وبينما كان ابن الملك يتنقّل من بيت إلى بيت، وصل أخيراً إلى بيت والد الفتاة، وحين رأت زوجة الأب ابن الملك قادماً، أَخْفَت ابنة زوجها في حوض للغسيل أمام البيت. وحين دخل ابن الملك ومعه الخفّ وسأل إنْ كانت في البيت أيّة فتاة، أجابته المرأة: «أجل»، وأحضرت

ابنتها. وحين انتعلت هذه الأخيرة الخفّ لم يتجاوز حتى أصابع قدمها. وعندها سأل ابن الملك إن كانت هنالك فتاة أخرى، فقالت زوجة الأب: «لا، ما من فتاة أخرى في البيت». وفي تلك اللحظة برز الديك فوق حوض الغسيل، وراح يصيح: «كوكو كوكوا ها هي في حوض الغسيل!».

صاحت زوجة الأب: «امضِ من هنا! وإلا خطفك النسر وطار!».

لكن ابن الملك، وقد سمع ذلك، أسرع إلى الحوض، ورفع غطاءه، فما الذي رآه هناك؟ الفتاة ذاتها التي كانت في الكنيسة، وعليها الثياب الذهبية التي ظهرت بها هناك آخر مرّة، لكنها كانت راقدةً في الحوض وليس في قدميها سوى فردة خفّ واحدة. وما إن وقعت عينا ابن الملك عليها حتى كاد أن يفقد عقله من شدّة السرور. عندئذٍ، سارع إلى وضع الخفّ الذي يحمله في قدمها اليمنى، فجاء على مقاسها تماماً، عدا عن مطابقته فردة الخفّ في قدمها اليسرى. فأخذ ابن الملك الفتاة إلى قصره وتزوجها.

الكَبش ذو الجِزّة الذهبيّة

خرج صيادٌ يوماً إلى الجبال ليصطاد فوقع هناك على كبشٍ ذي جزّةٍ ذهبية. وما إن رآه حتى رفع بندقيته كي يُطلق النار عليه، غير أنّه قبل أن يتمكّن من ذلك، اندفع إليه الكبش وقتله بقرنيه. وحين وجده أصدقاؤه مستلقياً وقد فارق الحياة، أخذوه ودفنوه، دون أن يعلموا كيف قُتِل. أمّا زوجة الصياد فعلّقت بندقيته على مسمار. وحين كبر ابنها بما يكفي، طلب البندقية من أمّه ذات يوم، بغية الخروج إلى الصيد. غير أنّ الأم رفضت طلبه، وقالت وهي تبكي: «لاشيء في الدنيا سيدفعني لأن أفعل ذلك، يا ولدي. لقد خسر والدك حياته بسبب تلك البندقية، فهل ترغب، أنت أيضاً، في أن تخسر حياتك بسببها؟».

بيد أنّ الفتى تمكّن من سرقة البندقية في يوم، وخرج إلى الجبال ليصطاد. وحين وصل إلى الغابة، ظهر له الكُبش ذو الجزّة الذهبية، وقال: «لقد قتلت أباك، وسوف أقتلك!».

فجَزِع الولد، وقال: «ليكن الله في عوني!» ثمّ صوّب بندقيته نحو الكبش وقتله.

سُرَّ الفتى أشدّ السرور لقتله الكبش ذا الجزّة الذهبية (الذي لم يكن له مثيل في المملكة كلها)، وعاد بجلده إلى البيت. وسرعان ما عمّ الخبر أرجاء البلد جميعاً حتى بلغ مسامع الملك، الذي أمر بأن يُحضِر الفتى جلد الكبش أمامه، ليرى أيّ بهائم مختلفة تعيش في مملكته. وحين أخذ الفتى الجزّة إلى الملك، وعَرَضها عليه، سأله الملك: «كم من المال تريد مقابل هذا الجلد؟». فأجابه الفتى: «لن أبيعه مقابل أيّ شيء».

وتصادف أَنْ كان وزيرُ الملك الأول عمّ الشاب، لكنه بدلاً من أن يكون صديقه، كان عدوّه الألدّ. ولذلك قال الوزير للملك: «إنْ لم يُعْطِك الجلد، فأطلِقْه في عملٍ يعمله ويكلّفه حياته. وأفضل خطة أن تأمره بأن يعمل شيئاً يستحيل عليه أن يعمله».

وبناءً عليه نَصَح الملك بأن يأمر الشاب أن يزرع كرمةً، وأن يحضر له منها شراباً جديداً، في سبعة أيام. وحين سمع الشاب بذلك راح ينتحب، ورجا أن يُعْفى من مثل هذه المهمة لأنّه عاجز عن اجتراح المعجزات. لكن الملك قال: «إنْ لم تفعل ذلك في سبعة أيام، فسوف تخسر حياتك».

عندئذ عاد الفتى إلى أمّه، وأخبرها بما جرى. فقالت الأم: «أَلَمْ أَقُلْ لك، يا ولدي، إنَّ الجزّة الذهبية سوف تكلّفك حياتك

كما كلّفت والدك حياته؟».

ولأن الفتى لم يجد راحةً في البيت، وهو ينتحب ويتساءل ما الذي يفعله، راح يتمشّى مبتعداً عن القرية، إلى أن برزت أمامه على حين غرّة فتاة صغيرة وسألته: «ما الذي يبكيك، يا أخي؟». فأجاب، بشيء من الحنق: «امضِ في شأنك، كرمى لله! ليس في وسعك أن تساعديني». ومضى في طريقه، لكن الفتاة لحقت به، ورجته كثيراً أن يخبرها عن سبب بكائه، وقالت: «لعلّي أستطيع مساعدتك». فقال لها: «حسنٌ، إذاً، سوف أخبرك، مع أنني واثقٌ أنّ أحداً لا يمكنه مساعدتي سوى الله». وأخبرها بكلّ ما جرى له، وبما أمره به الملك. وحين أخبرها كلّ ذلك، قالت: «لا تبكِ، يا أخي، بل اذهب واطلب من الملك أن يحدد لك الموضع الذي ينبغي أن تُزرَع فيه الكرمة، وأنْ يُفلَح ذلك الموضع خطوطاً مستقيمة، ثم اذهب بنفسك وخُذ كيساً، فيه فرعٌ من الريحان، واستلق لتنام في الموضع الذي عُيِّن لزراعة الكرمة. تشجّع! لا تخفْ! وفي سبعة أيام ستكون أعنابك قد نضجت».

وحين عاد الفتى إلى البيت أخبر أمّه بلقائه الفتاة الصغيرة، وبما قالته له، ولم يكن يصدّق ما قالته البتّة. لكن الأم، حين سمعت

ذلك كله، قالت له: «اذهب يا بنيّ وجرّب، فأنت إنسان مفقود في الأحوال جميعاً. ولا يسعك إلا أن تجرّب».

ذهب الفتى إلى الملك وطلب أرضاً للكرمة، ورجا أن تُحرث خطوطاً مستقيمةً. فأمر الملك بأن تجري الأمور كما طلب الشاب، الذي وضع للتو كيساً على كتفه، وعِرْقاً من الريحان، ومضى مثقلاً بالخوف والحزن كي يستلقي في الموضع المحدّد. وحين أفاق في الصباح كانت الكرمة قد زُرِعَت، وفي الصباح التالي كانت الأوراق قد نَبَتَتْ؛ وباختصار، كانت العناقيد قد نضجت في اليوم السابع، مع أنَّ الموسم لم يكن موسم العنب.

قطف الشاب بعض العناقيد، وصنع شراباً لطيفاً؛ كما أخذ مجموعة من العناقيد في منديل، ومضى إلى الملك. فدُهِش الملك والحاشية جميعاً أشدّ الدهشة، لكن عمّ الشاب قال: «الآن سوف نأمره بالقيام بشيء يستحيل عليه تماماً أن يقوم به». ونصح الملك بأن يُحْضَر الشاب، ويأمره بأن يبني قصراً من أنياب الفيلة.

سمع الشاب أمر الملك، ومضى إلى البيت منتحباً. وأخبر أمّه بالأمر الذي أصدره الملك إليه، وقال: «أمّاه، هذه مهمة لا أقوى عليها ولا يقوى عليها أي أحد آخر». فنصحته أمّه بأن يتمشّى خارج القرية. وقالت: «لعلّك تلتقي من جديد تلك الفتاة الصغيرة».

فخرج يتمشّى؛ وحين بلغ المكان حيث سبق له أن رأى الفتاة، ظهرت ثانيةً، وقالت: «أنت حزين ومضطرب كما كنت من قبل، يا أخي». فأخبرها بالمهمة التي ألقاها الملك على عاتقه. وما إن سمعت ذلك حتى قالت: «هذا سهلٌ أيضاً، ولكن اذهب أولاً إلى الملك، واطلب منه سفينة فيها ستمئة برميل من الشراب وعشرين نجّاراً. وحين تصل إلى مكانٍ سوف تجده بين الجبال، احجز الماء الموجود هناك، وصُبَّ فيه الشراب. وسرعان ما ستأتي الفيلة لتشرب الماء، لكنها ستشرب الخمر وتخرّ هناك. وعندها سيكون على نجّاريك العشرين أن يقطعوا أنيابها، ويحملوها إلى الموضع الذي يرغب الملك أن يُقام فيه القصر. وهناك استلقِ ونَم، وفي سبعة أيام يكون القصر جاهزاً».

عاد الفتى إلى البيت وأخبر أمّه بما قالته الفتاة الصغيرة. فنصحته الأم أن يفعل كما أشارت عليه الفتاة، وقالت: «امضِ، يا بني، لعلّ الله سيعينك من جديد». وهكذا، ذهب الشاب إلى الملك، وطلب براميل الشراب، وعشرين نجاراً، فزوّده الملك بكل ما أراد. فمضى في الحال حيث قالت له الفتاة، وفعل كما أمرته. وكما توقعتْ، فقد جاءت الفيلة لتشرب، وسَكِرَت، وخرّت هناك؛ فنَشَر النجّارون أنيابها، وحملوها إلى الموضع الذي سيُقام

فيه القصر. وفي المساء، أخذ الشاب كيسه وفرعاً من الريحان، ومضى ليرقد في ذلك الموضع.

وفي اليوم السابع كان القصر جاهزاً. وحين رآه الملك، تعجّب كثيراً، وقال لوزيره الأول، عمّ الشاب: «ما عسانا نفعل به الآن؟ ليس هذا بإنسان في حقيقة الأمر؛ لا يعلم إلا الله ما هو».

فأجاب الوزير: «ثمة شيء آخر ينبغي أن تأمره بالقيام به، فإذا ما إنجزه، كغيره، كان حقاً شيئاً آخر يفوق الإنسان».

وبناءً على نصيحة وزيره، استدعى الملكُ الشابَ من جديد، وقال: «اذهب، الآن، وأَحْضِر لي ابنة ملك المملكة الفلانية، فإن أخفقت في إحضارها، فقدت رأسك».

عاد الشاب إلى البيت وأخبَر أمّه بالمهمة الجديدة التي ألقاها الملك على عاتقه، فقالت الأم: «اذهب، يا بني، وابحث عن تلك الفتاة الصغيرة. لعلّ الله يقدّر أن تنقذك للمرّة الثالثة!».

خرَج الشاب، كما من قبل، مبتعداً عن القرية، والتقى الفتاة الصغيرة، وأخبرها بما طُلِبَ منه هذه المرّة.

أَصْغَت إليه الفتاة، ثم قالت: «امضِ واطلب من الملك سفينةً، وأن يُقام في السفينة عشرون متجراً، وأن يكون في كلّ منها نوعٌ

مختلف من البضاعة، كلُّ نوعٍ أفضل من الآخر، ثم اطلب أن يجري اختيار عشرينٍ من أَوْسَم الشباب، وتوضع عليهم أفخر الثياب، ويوضعوا كلٌّ واحدٍ في متجر كباعة. ثمّ أَبْحِر أنت في السفينة، وسوف تلتقي أولاً رجلاً يحمل نسراً ضخماً. عليك أن تسأله إن كان يبيعك إياه، وسوف يجيبك: «نعم». فأعطه أيّ شيء يطلبه لقاء النسر. وبعد ذلك سوف تلتقي رجلاً يحمل في شبكة صيده شبّوطاً ذا حراشف ذهبية، عليك أن تشتري الشبّوط، مهما كلّف الأمر. ثم ستلتقي، ثالثاً، رجلاً يحمل حمامةً حيّة، وعليك أن تشتري هذه الحمامة أيضاً، مهما كان ثمنها. ثمّ خُذْ ريشةً من ذيل النسر، وحرشفة من الشبّوط، وريشةً صغيرة من جناح الحمامة الأيسر، وأَطْلِق النسر والشبّوط والحمامة. وحين تصل إلى المملكة حيث تقيم الأميرة، افتح المتاجر العشرين جميعاً، واطلب من كلِّ شاب أن يقف أمام باب متجره. وعندئذٍ سوف يأتي المواطنون ويعجبون بالبضائع، والفتيات، اللواتي سيأتين لِجَلْب الماء، سيعدن إلى المدينة ويقلن: «لم يسبق لهذه المدينة قطّ أن رأت مثل هذه السفينة ومثل هذه البضائع!». وسوف تبلغ هذه الأخبار مسامع ابنة الملك، فتطلب من والدها أن يأذن لها بالخروج لترى السفينة بنفسها. وحين تصعد، مع صديقاتها، إلى ظهر السفينة، عليك أن تقودها من متجر إلى آخر، وتُخْرِج لها أجمل البضائع التي لديك. وعليك أن تدبّر أمر إثارة اهتمامها

وإبقائها على متن السفينة إلى وقت الغسق، وعندئذٍ دَعِ السفينة تبحر. وفي تلك اللحظة سيكون الظلام قد حلّ فلا يمكن رؤية أيّ شيء. وسوف يكون ثمّة طائر على كتف الفتاة، وحين ترى أنّ السفينة قد أبحرت مبتعدة، سوف تطلق الطائر لكي ينقل إلى القصر نبأ ما حصل لها. حينئذ عليك أن تحرق ريشة النسر، وسوف يأتي إليك النسر العجوز في الحال. فتأمره بأن يمسك بالطائر، وسوف يسارع إلى فعل ذلك. بعدها ستلقي الفتاة بحجر صغير في الماء، فتقف السفينة ساكنةً في الحال، لكنك ستحرق حرشفة الشبوط على الفور، فيأتيك الشبّوط، وتأمره بأن يجد الحجر الصغير ويبتلعه، وسيفعل، فتنطلق السفينة من جديد. وبعد فترة ستصلون مكاناً بين جبلين؛ وهناك ستتحول السفينة إلى حجرٍ وستفزع أشدّ الفزع. وستحثّك الفتاة على أن تحضر بعضاً من ماء الحياة، وعليك عندئذ أن تحرق ريشة الحمامة التي ستظهر في الحال، فتعطيها زجاجةً صغيرةً لتجلب لك بعضاً من ماء الحياة، وحين تفعل تنطلق السفينة من جديد، وتعود سعيداً إلى الوطن ومعك ابنة الملك».

أصغى الشاب إلى نصيحة الفتاة، ثمّ عاد وأخبر أمّه بكلّ ذلك. وبعدها مضى إلى الملك وطلب جميع الأشياء التي أشارت الفتاة بأن يحصل عليها. و لم يستطع الملك أن يرفض،

فأُعْطِي كلّ ما طلبه، وأبحر مبتعداً.

جرت جميع الأمور كما توقّعت الفتاة تماماً، وعاد الشاب مسروراً إلى بلاده مع ابنة الملك.

وحين رأى الملك ووزيره الأول، عمّ الشاب، السفينة، من نوافذ القصر، وكانت لمّا تزل بعيدةً عن المدينة، قال الوزير للملك: «لم يبقَ شيء نفعله سوى أن نقتله حين يخرج من السفينة!».

وعندما وصلت السفينة الميناء، خرجت ابنة الملك أولاً مع وصيفاتها، ثمّ البحّارة الشباب، وأخيراً، خرج الشاب وحده. لكن الملك كان قد وضع السيّاف هناك، وحين خطا الشاب خارجاً قطع السيّاف رأسه. وكان الملك ينوي الزواج من الأميرة، ولذلك هُرع إليها ما إن نزلت إلى اليابسة، وراح يلاطفها، لكنها أشاحت عنه بوجهها، وقالت: «أين الذي عَمِل من أجلي؟». وحين رأت رأسه مقطوعاً أسرعت إلى الجسم، وأخذت بعضاً من ماء الحياة وصبّته عليه، فنهض حياً سليماً كما كان من قبل. وحين رأى الملك ووزيره هذه الأعجوبة، قال الوزير للملك: «هذا الرجل سوف يعلم الآن أكثر مما علمه في أي وقت مضى، لأنه كان ميتاً وعاد إلى الحياة!».

فراح الملك يتساءل إن كان صحيحاً أنّ الإنسان الذي يموت يعلم أكثر حين يعود إلى الحياة، ولكي يشبع فضوله هذا، أمر السيّاف بأن يقطع له رأسه، وأمر بأن تعمل الفتاة التي تحمل ماء الحياة على إعادته إلى الحياة من جديد. غير أنَّ الفتاة رفضت أن تعيد الملك إلى الحياة بعد أن قُطِع رأسه. وبدلاً من ذلك، كتبت رسالةً إلى أبيها، تخبره فيها بكلّ ما جرى، وتفضي إليه برغبتها في الزواج من الشاب. ولذلك أرسل الملك، والدها، فرماناً يقضي بأن يتّخذ الشعب الشاب ملكاً عليهم، وهدّد بإعلان الحرب إذا ما رفضوا. وأدرك الشعب في الحال مزايا هذا الشاب، وأقرّوا أنه جدير بأن يكون ملكهم، وبأن يتزوج من ابنة الملك. وهكذا جعلوه ملكاً، وتزوّج من ابنة الملك. كما تزوّج الشبان الوسيمون، الذين أبحروا معه في السفينة ليبيعوا في المتاجر، من وصيفات ابنة الملك التي باتت الآن ملكة، وغدوا جميعاً من عليّة القوم في المملكة.

القناعة كنز لا يفنى

عاش مرّةً ثلاثة أخوة، لم يكن بحوزتهم سوى شجرة كمّثرى. وكانوا يتعهدون هذه الشجرة بالرعاية، فيحرسها كلٌّ بدوره، بينما يعمل الآخران بأَجْرٍ بعيداً عن البيت. وفي يوم من الأيام بعث الله ملاكاً ليرى كيف يعيش هؤلاء الإخوة، وأمره، إن وجد حياتهم شديدة البؤس، أن يقدّم لهم أشهى الطعام. وحين هبط الملاك إلى الأرض اتّخذ هيئة شحاذ. ولمّا وقعت عيناه على واحد من الإخوة يرعى شجرة الكمّثرى، طلب منه أن يعطيه واحدةً من ثمارها. فقطف الأخ بعض الثمار، وأعطاها للشحّاذ، وقال: «خُذ هذه الثمار من حصّتي؛ لا يسعني أن أعطيك من حصّتيّ أخويّ». فشكر الملاك الرجل ومضى.

وفي صباح اليوم الثاني بقي الأخ الثاني لحراسة شجرة الكمّثرى؛ وعاد الملاك ثانيةً ورجاه أن يعطيه ثمرةً. فأخذ الرجل بعض الثمار وأعطاها للملاك، قائلاً: «خُذْ هذه من ثماري، أمّا ثمار أخويّ فلا أجرؤ على إعطائك منها».

وفي اليوم الثالث بقي الأخ الثالث في البيت مع شجرة الكمّثرى، وجاء الملاك كما في المرتين السابقتين، وطلب ثمرةً واحدةً وحسب. فقال هذا الأخ أيضاً: «إليك بعضاً من ثماري، أمّا ثمار أخويّ فلا يسعني أن أعطيك منها».

وفي اليوم التالي، اتّخذ الملاك هيئة راهب، وبكّر كثيراً، كي يجد الإخوة الثلاثة في البيت، وقال لهم: «تعالوا معي سوف أقدّم لكم قُوتاً أفضل من الذي لديكم».

تبع الإخوة الثلاثة الراهب دون أن ينبسوا ببنت شفة. وفي النهاية وصلوا إلى سَيْل جارف، وكانت المياه تتدفّق في تياراتٍ عارمةٍ، وتُطْلِقُ أصواتاً صاخبةً. عندئذٍ سأل الملاكُ الأخَ الأكبر: «اطلب وتَمَنَّ». فقال الرجل: «أتمنى أن تتحول هذه المياه كلّها إلى شراب، ويكون هذا الشراب لي».

رسم الملاك علامة في الهواء بعصاه، وفي غمضة عين راح الشراب يتدفّق بدلاً من المياه. وعلى ضفتي النهر كانت ترتفع تلالٌ من البراميل، ورجال يعملون بدأبٍ ومثابرة. وباختصار، كانت هنالك قرية بكل معنى الكلمة. وترك الملاك الأخ الأكبر هناك، قائلاً: «هذا كل ما اشتهيته! اعتنِ بنفسك!». ثم واصل رحلته مع الأخوين الآخرين. وحين بلغوا حقلاً يغطّيه الحَمام،

سأل الملاك الأخ الأوسط: «اطلب وتَمَنَّ». فردّ الرجل: «أتمنى لو كان هذا الحمام كلّه خرافاً، وتكون هذه الخراف لي!». ومن جديد، رسم الملاك بعصاه علامة في الهواء، وفي الحال تحول الحَمام إلى خراف. وكانت هنالك أيضاً مصانع ألبان، ونساء يحلبن النّعاج، ونساء يسكبن الحليب، وأخريات يجمعن القشدة، وسواهنّ يصنعن الجبن، وغيرهنّ يمخضن الزبدة. وكان هنالك مسلَخ أيضاً، فيه رجال يقطعون اللحم قطعاً، وآخرون يَزِنونه، وسواهم يقبضون المال من الذين يشترون.

قال الملاك عندئذ للأخ الأوسط: «هذا ما تمنيته؛ فعِشْ».

ثم أخذ معه الأخ الأصغر، وحين عبرا الحقل، قال له: «وأنت، هيا اطلب وتَمَنَّ». فقال الرجل: «لا أتمنى أيَّ شيء، سوى أن يهبني الله زوجةً دماؤها تقية نقية». فقال الملاك: «يصعب إيجاد مثل هذه الزوجة! فليس في العالم كله سوى ثلاث نساء مثلها، منهنّ اثنتان متزوجتان أصلاً. أما الثالثة فلا تزال بِكْراً، لكنّ رجلين طلبا يدها».

هكذا انطلق الملاك والشاب، وبعد رحلة طويلة وصلا إلى مدينة الملك الذي تسري في عروق ابنته دماء تقية نقية.

وما إن وصلا حتى قصدا القصر يسألان عن الفتاة. وحين دخلا،

وجدا ملكين قد سبقاهما، وعلى طاولةٍ ما جلباه من تَقْدِمات الزواج. فوضعا هما أيضاً ما جلباه من هدايا. وحين رآها الملك، قال للواقفين بين يديه جميعاً: «ماذا نفعل الآن. تلك هدايا الملوك، أما هذه فتبدو إزاءها أشبه بهدايا شحّاذ!». فقال الملاك: «سأقول لك ما تَفْعَل. فليُحْسَم الأمر على النحو التالي: تأخذ الفتاة ثلاثة أعواد كرمة، وتغرسها في الحديقة، وتخصّ بكلٍّ واحدٍ منها واحداً من طالبي يدها. ومَن ينضج عنب كرمته في اليوم التالي، يكون زوجاً للفتاة». فوافق الجميع على ذلك، وغرست الفتاة ثلاثة أعواد كرمة في الحديقة، وخصّت كلَّ واحدٍ من طلابها بعود.

وفي اليوم التالي، حين نظروا، وجدوا العنب على العود الذي خُصَّ به الرجل الفقير. فأُسقِط في يد الملك، واضطر أن يعطي ابنته للأخ الأصغر، فأقام حفل زفافهما في الكنيسة على الفور. وبعد الزفاف، أخذهما الملاك إلى غابة، وتركهما هناك، حيث عاشا حَوْلاً كاملاً.

وفي نهاية الحول، بعث الربّ الملاك ثانيةً، وقال له: «اهبط وانظر كيف يعيش أولئك الفقراء. فإن كان طعامهم قليلاً، أعطهم أشْهى القوت».

هبط الملاك إلى الأرض كما في المرّة السابقة، في هيئة شحّاذ،

ومضى أولاً إلى الأخ الذي يملك السيل الطافح بالشراب، وطلب كأساً من الشراب، لكن الرجل رفض أن يعطيه، قائلاً: «لو أعطيت كلّ من يطلب كأساً من الشراب، فسوف أبدّد كلّ ما لديّ!». وحين سمع الملاك ذلك، رسم بعصاه علامة في الهواء، فبدأ السيل يتدفّق بالماء كما كان في البداية. وقال الملاك للأخ الأكبر: «هذا لم يكن لك! عُدْ إلى شجرة الكمّثرى لتحرسها!».

بعد ذلك مضى الملاك إلى الأخ الأوسط صاحب الحقل الذي يعجّ بالخراف، ورجاه أن يعطيه قطعة جبن صغيرة، لكنه رفض، قائلاً: «لو أعطيت كلَّ واحدٍ قطعة جبن صغيرة، لما بقي لديّ شيء منها!». وحين سمع الملاك ذلك، رسم علامة بعصاه في الهواء، فتحولت الخراف في الحال إلى حمام، لم يلبث أن طار مبتعداً. ثم قال الملاك للأخ الأوسط: «ذلك لم يكن لك! امضِ إلى شجرة الكمثرى لتحرسها!»

أخيراً مضى الملاك ليرى كيف يعيش الأخ الأصغر، فوجده مع زوجته في الغابة، يقطنان في كوخ صغير ويعيشان عيشة فقر. ورجاهما إن يأذنا له بقضاء تلك الليلة عندهما، فاستقبلاه بحفاوة عظيمة، واستسمحاه أنهما لا يستطيعان أن يخدماه كما ينبغي، وقالا: «لسنا سوى فقراء». فردّ

الملاك: «لا تباليا! سوف يرضيني ما لديكما كلّ الرضا».
عندئذٍ تساءل الزوجان فيما بينهما ما الذي يفعلانه. فلم يكن لديهما ذرة لصنع خبز حقيقي، وعادةً ما كانا يطحنان لحاء أشجار معينة، ويصنعان منه خبزاً. ولذلك، راحت الزوجة تصنع هذا الخبز الأخير للضيف، وتضعه في النار لتخبزه. وبينما كان يُخْبَز، راحا يتحدّثان مع الضيف. وحين نظرا ليريا إنْ كان الرغيف قد نضج، وجدا هناك رغيفاً من الخبز الحقيقي جاهزاً للأكل وكبيراً جداً. عندئذٍ رفعا أيديهما وشكرا الله، قائلين: «حمداً لله! لقد صار بوسعنا أن نقدّم الطعام لضيفنا».

وضع الزوجان أمام الملاك الخبز، ووعاءً ممتلئاً بالماء، وحين همّا بالشرب وجدا أنّه شراب. عندها رسم الملك علامة بعصاه فوق الكوخ، فنهض في ذلك الموضع قصر ملكي فيه وفرة من كلّ شيء. وبارك الملاك الأخ الأصغر وزوجته، وغادرهما هناك، حيث عاشا بسعادة وهناء عيشة مديدة.

العدل أم الظلم، أيّهما أفضل؟

كان للملك ولدان، أحدهما ماكر ظالم، والآخر عادل لطيف. وبعد موت الوالد قال الأخ الأكبر للأصغر: «غادِرْ من هنا؛ لن أعيش معك بعد اليوم. هذه ثلاثمئة دوقاتيّة[1] وحصان: نصيبك من أملاك والدنا. خُذه، فلستُ أدينُ لك بسواه». أخذ الأصغر المال والحصان، وقال: «حمداً لله! يا لهذا القَدْر الذي آلَ إليّ من المملكة!».

وبعد حين التقى الأخوان في الطريق مصادفةً، وكان كلٌّ منهما على حصانه. حيّا الأخُ الأصغر الأخَ الأكبر قائلاً: «كان الله في عونك، يا أخي!». فردَّ الأكبر: «مالكَ لا تكفّ عن ذكر الله؟ الظلم في هذه الأيام أفضل من العدل».

غير أنّ الأخ الأصغر قال له: «أراهنك على أنّ الظلم ليس أفضل من العدل». فتراهنا على مئة قطعة ذهبية، واتفقا أن يتركا أمر الحسم في هذا الموضوع لأول رجل يلتقيانه في الطريق.

(1) عملة ذهبية (م).

وما إن سارا قليلاً حتى التقيا الشيطان متنكراً في زيّ راهب، فطلبا منه أن يحسم فيما هو الأفضل، العدل أم الظلم. فأجاب الشيطان: «الظلم!» فأعطى الأخُ الصالح الأخَ الطالح القطع الذهبية التي راهن عليها.

ثمّ تراهنا على مئة أخرى، وتراهنا في مرة ثالثة على مئة ثالثة، وفي كلّ مرّة كان الشيطان -بهيئات تنكّره المختلفة- يقرّر أن الظلم أفضل من العدل.

هكذا فقد الأخ الأصغر كلَّ ماله، وحصانه في الرهان، فقال: «حمداً لله! لم يبق لديّ مال، لكنّ لديّ عينين، وأرى بعينيّ أنّ العدل أفضل من الظلم».

عندها سحب الأخ الظالم سكينه، من دون أن ينتظر قراراً من أحد، وانتزع عيني أخيه قائلاً: «لم تعد لك عينان، فدعِ العدل يعينك». غير أنّ الأخ الأصغر شكر الله على الرغم من عنائه وقال: «لقد فقدت عينيّ من أجل العدل الإلهي، لكني أتوسل إليك، يا أخي، أعطني قليلاً من الماء في إناء كي أغسل جراحي وأبلّل شفتيّ، وأخرجني من هذا المكان إلى شجرة الصنوبر قرب الينبوع قبل أن تتركني». ففعل الأخ الظالم ذلك وأعطاه ماءً، وتركه وحيداً تحت شجرة الصنوبر قرب نبع الماء.

هنالك مكث الأخ المنحوس جالساً على الأرض. غير أنّ بعض الجنيّات جئن إلى النبع، في وقت متأخر من الليل، كي يغتسلن هناك، وقالت إحداهنّ للأخريات: «هل تعلمن، يا أخواتي. أنَّ ابنة الملك قد أصيبت بالبرص؟ وأنَّ الملك قد استدعى جميع الأطباء، لكنّ أحداً منهم لم يتمكن من تقديم العون لها. ولو كان يعلم الملك لأخذ قليلاً من هذا الماء الذي نغتسل فيه، ومسح به ابنته، وسوف تشفى من برصها كلّ الشفاء في يوم وليلة، شأنها شأن أيّ أصمّ وأبكم أو ضرير يتداوى بهذا الماء».

وعندما بدأت الديكة بالصياح، عجّلت الجنيّات بالذهاب. وما إن ذهبْنَ حتى تلمّس الرجل المنحوس طريقه ببطء مادّاً يديه على طولهما إلى أن بلغ نبع الماء. وهناك مسح عينيه فعاد له بصره للتوّ. ثمّ ملأ وعاءً بالماء، وهُرِع إلى الملك، الذي أصيبت ابنته بالبرص، وقال للخدم: «جئت أداوي ابنة الملك، فلعلّه يأذن لي بالمحاولة. وأنا أضمن أن تشفى في يوم وليلة».

حين سمع الملك بذلك، أمرَ بأن يُسمَح له بالدخول إلى غرفة الفتاة، فجعلها تستحمّ بالماء على الفور. و لم يمر يوم وليلة حتى عادت الفتاة سليمة معافاة.

سُرَّ الملك كثيراً، وأعطى الأمير الشاب نصف مملكته، كما أعطاه ابنته زوجةً، فبات صهر الملك، والرجل الأول في المملكة من بعده.

انتشر نبأ هذا الحدث العظيم في أرجاء الدنيا. وحين بلغ مسامع الأخ الظالم خمّن في الحال أنّ أخاه الأعمى لا بدّ أن يكون قد أصاب حظّاً تحت شجرة الصنوبر، فذهب بنفسه لكي يصيب أيضاً هذا الحظّ. فحمل معه وعاءً ممتلئاً بالماء، ثمّ انتزع عينيه بسكينه. وحين حلّ الظلام عادت الجنيّات من جديد، وبينما كنّ يغتسلن رحنَ يتحدثن عن شفاء ابنة الملك. وقلن: «لا شكّ أنّ أحداً كان يسترق السمع لحديثنا الأخير هنا. ولعلّ أحداً يسترق السمع في هذه اللحظة. فدعونا نتأكد».

هكذا رحنَ يفتّشن في كل مكان، وحين وصلن إلى شجرة الصنوبر، وجدن الأخ الظالم الذي أتى يسعى وراء الحظّ، والذي لم يكفّ عن القول إن الظلم أفضل من العدل. فأمسكن به في الحال، ومزّقنه قطعاً أربع.

وبذلك فإنّ شرّه لم يفده، في آخر الأمر، ودفع ثمن اكتشافه أن العدل أفضل من الظلم.

ألاعيب الشيطان وقدرة الرب

ذات صباح خرج ابن الملك إلى الصيد. وبينما كان يغذّ السير في الثلج جرح نفسه جرحاً طفيفاً، وسقطت قطرات الدم على الثلج. وحين رأى كم بدا الدم الأحمر حلواً على الثلج الأبيض، فكّر: «آهٍ لو أمكن لي أن أتـزوّج فتاة بيضاء كالثلج ومتورّدة كهذا الدم!».

وبينما كان يفكّر على هذا النحو، صادف عجوزاً وسألها إن كانت هنالك فتيات بمثل هذه الصفات. فقالت له العجوز إنّ على الجبل الذي يراه أمامه ثمّة بيت بلا أبواب، مدخله ومخرجه نافذة صغيرة وحيدة. وأضافت: «في ذلك البيت، يا ولدي، تعيش فتاةٌ كالتي تحلو لك؛ غير أنّ أحداً من الشباب الذين ذهبوا يطلبون يدها لم يَعُدْ من هناك».

فأجاب الأمـير: «قد يكون الأمـر كما تقولين، غير أنني سأذهب! دلّيني وحسب على الطريق الذي ينبغي أن أسلكه كي أصل إلى البيت».

وحين سمعت العجوز قراره هذا، حزنت على الشاب، وأخذت قطعة خبز من كيسها، وأعطته إياها، قائلةً: «خُذ كسرة الخبز هذه واحفظها كعينيك» فأخذ الأمير الكسرة، وواصل رحلته. وسرعان ما التقى عجوزاً أخرى، سألته عن وجهته. فقال لها إنه ماضٍ ليطلب يد الفتاة التي تعيش في البيت بلا أبواب على الجبل. حاولت العجوز أن تثنيه عن عزمه، وقالت له ما سبق أن قالته العجوز الأولى. لكنه قال: «قد يكون ذلك صحيحاً تماماً، غير أنني سأذهب، ولو لم أعدْ قطّ». عندئذٍ أعطت العجوز الأميرَ بندقة صغيرة، وقالت: «أبقِ هذه البندقة معك على الدوام، فقد تعينك في وقت ما!».

أخذ الأمير البندقة ومضى في سبيله، إلى أن التقى عجوزاً جالسة على قارعة الطريق. فسألته: «أين تذهب؟». فقال لها إنه ماضٍ يطلب يد الفتاة التي تعيش في المنزل على الجبل الذي أمامه. وعندئذٍ بكت العجوز وتوسّلت إليه أن ينسى أمر تلك الفتاة، وحذّرته كما فعلت العجوزان السابقتان. غير أنّ ذلك

كلّه لم يُجْدِ نفعاً، فالأمير كان عازماً على الذهاب، ولذلك أعطته العجوز جوزة، وقالت: «خُذْ هذه الجوزة، واحرص أن تبقى معك إلى أن تحتاج إليها».

تعجّب الأمير لأمر هذه الأعطيات، وطلب منها أن تخبره لماذا أعطته العجوز الأولى كسرة خبز، والثانية بندقة، وهي نفسها جوزة. فأجابت العجوز: «كسرة الخبز لتلقيها للوحوش أمام البيت، لعلّهم لا يأكلونك، وحين تواجه الخطر الأعظم، اطلب المشورة من البندقة أولاً، ثمّ من الجوزة».

تابع ابن الملك مسيره عندئذٍ، إلى أن بلغ أخيراً غابةً كثيفةً، رأى في وسطها بيتاً بنافذةٍ وحيدة. وحين اقترب منها هاجمه جمع غفير من وحوش شتى، فألقى إليها كسرة الخبز، بحسب نصيحة العجوز. فمضت الوحوش تتشمم الخبز وحشاً إثر آخر، وكلّما تشمّمها واحد طوى ذيله بين ساقيه وأقعى هادئاً مستكيناً.

لم يكن للبيت باب، بل نافذة وحيدة، مرتفعة عن الأرض كثيراً، حتى إنّه ما كان ليبلغها مهما فعل. فجأة رأى امرأة تحلّ شعرها الذهبيّ، فأسرع وتمسّك بهذا الشعر، وحين رفعته ارتفع معه إلى البيت. ورأى أن هذه المرأة هي التي قصد هذا المكان من أجلها. وسُرَّ الأمير والفتاة على السواء لرؤية واحدهما الآخر،

وقالت: «حمداً لله أنّ والدتي ليست في البيت! لقد خرجت إلى الغابة لتجمع النباتات التي تحوّل بها إلى وحوش كلّ الشباب الذين تجرؤوا على القدوم إلى هنا ليطلبوا يدي. أولئك هم الوحوش الذين كانوا سيقتلونك، لو لم يُعِنْكَ الله. ولكن دعنا نهرب من هذا المكان». فهربا عبر الغابة بأسرع ما يمكنهما. غير أنهما حين التفتا رأيا أنّ أمّ الفتاة كانت في إثرهما فخافا. وحين اقتربت العجوز منهما أشدّ الاقتراب تذكّر الأمير بندقته. فأخرجها بسرعة وسألها: «كرمى لله! قولي لي ما الذي ينبغي أن نفعله الآن؟». فردّت البندقة: «افتحني!» ففتحها الأمير، ومن البندقة الصغيرة تدفّق نهر عظيم، قطع الطريق على والدة الفتاة. غير أنّها مسّت المياه بعصاها فانقسم في الحال مُسْفِراً عن طريق، أسرعت عليه تلاحق الأمير والفتاة.

وحين رأى الأمير أنها سرعان ما ستدركهما، أخرج الجوزة وسألها: «قولي لي ما الذي ينبغي أن نفعله الآن؟». فردّت الجوزة: «اكسرني!»، فكسر ابن الملك الجوزة، فشبّت نار عظيمة، لم تكد الغابة برمّتها تنجو من ألسنتها. لكنّ والدة الفتاة تَفَلَت على النار، فخمدت في الحال. ورأى ابن الملك عندئذ أن ذلك كلّه ليس سوى ألاعيب الشيطان، فاستدار إلى

الشرق، وطلب من الله القدير العون. فجأة قصف الرعد ولمع البرق ونزلت من السماء صاعقة ضربت والدة الفتاة، فخرّت على الأرض صريعةً.

وبعد طول وقت بلغ ابن الملك موطنه سليماً معافى، وتزوج من الفتاة وعاشا في هناء وسعادة.

الفتاة الحكيمة

عاش مرّة رجلٌ فقير في كوخ صغيرٍ حقير، و لم يكن يملك شيئاً في هذه الدنيا سوى ابنةٍ حكيمة بالفعل. وقد علّمت هذه الفتاة أباها كيف يستعطي، وكيف ينطق بحكمة. وفي يوم من الأيام ذهب الرجل الفقير إلى الملك يستعطيه، فسأله الملك من أين أتى، ومن علّمه أن ينطق بمثل هذا الكلام الحسن.

فأَخْبَرَ الملك أين يعيش، وأنّ لديه ابنةً علّمته ما يقول.

وسأله الملك: «ومَنْ علّم ابنتكَ هذه الحكمة كلّها؟». فأجاب الفقير: «الله وبؤسنا صنعا حكمتها».

عندئذ، أعطاه الملك ثلاثين بيضة وقال: «خُذْ هذا البيض إلى ابنتك، وقُل لها إذا ما أَخرَجَت من البيض فراخاً فسوف أعطيها عطايا ثمينة، أما إذا أخفقت فسوف أعذّبَك أنت».

عاد الرجل الفقير إلى كوخه منتحباً، وأَخْبَرَ ابنته بكلّ هذا. ورأت الفتاة في الحال أنّ ما بعث به الملك هو بيض مسلوق

لكنها طلبت من والدها أن ينام هانئاً، وقالت إنّها سوف تُغْنَى بالأمر. فأجابها الأب إلى ما طلبته، وبينما كان نائماً، أخذت قِدْراً وملأتها بالماء والفاصولياء وغَلَتْها.

وفي الغد طلبت من والدها أن يأخذ سكّةَ محراثٍ وثوراً، ويذهب ليحرث في غابةٍ يمرّ بقربها الملك. وقالت: «حين ترى الملك قادماً، خُذ حفنة من الفاصولياء، وابدأ بنثرها، وأنت تصيح: «هيا، يا ثَوْري، لعلَّ الله يُنْعِم علينا بأن تثمر هذه الفاصولياء المسلوقة!». وحين يسألك الملك: «كيف يمكن للفاصولياء المسلوقة أن تنمو؟» أَجِبْهُ: «كما يمكن للبيض المسلوق أن يفقس عن فراخ!».

سَمِعَ الفقير لابنته، ومضى ليحرث، وحين اقترب الملك، راح يصيح: «هو هو، يا ثَوْري! هيا! لعلَّ الله يُنْعِم علينا بأن تعطي هذه الفاصولياء المسلوقة محصولاً وافراً!».

حين سمع الملك هذا الكلام أوقف عربته، وقال للفقير: «أيها الشقيّ، كيف يمكن للفاصولياء المسلوقة أن تغلّ محصولاً؟». فأجابه الرجل: «كما يمكن للبيض المسلوق أن يفقس عن فراخ».

رأى الملك أنّ ابنة الرجل قد علّمته ما يقول، وأمر خدمه بأن يحضروا الرجل أمامه. وعندئذٍ أعطاه حزمةً من الكتّان، وقال: «خُذ هذه، واصنع منها كلَّ ما تحتاج إليه سفينة من الأشرعة. فإنْ لم تُفلِح، خسرت حياتك».

أخذ الفقير حزمة الكتّان بخوفٍ شديد، وعاد منتحباً إلى الكوخ ليخبر ابنته، التي طلبت منه أن يمضي إلى النوم قرير العين. وفي الصباح التالي أعطته قطعة خشب صغيرة، وقالت له أن يأخذها إلى الملك ويطلب منه أن تُصْنَع من هذه القطعة جميع الآلات اللازمة للغزل والحياكة. وتابعت، قائلةً: «قُلْ له: عندئذٍ، سوف أصنع كلَّ ما طلبته مني».

دُهِش الملك، وفكّر للحظةٍ ماذا يفعل، ثم قال: «خذ هذه الكأس إلى ابنتك، وقُلْ لها إنَّ عليها أن تُفْرَغ بها البحر، فتكون يابسةٌ حيث الماء الآن».

أخذ الفقير الكوب الصغير إلى ابنته، وأخبرها، وهو ينتحب، بكلّ ما طلبه الملك. فطلبت منه أن يهدأ حتى الصباح، وعندئذ سوف تفعل كلّ ما يلزم. وفي الصباح نادت والدها، وأعطته رطلاً من ألياف الكتّان، وقالت: «خُذ هذه إلى الملك، وقُل له أن يوقف بها كلَّ منابع الأنهار والبحيرات، وعندها سوف أجفّف البحر».

ذهب الفقير إلى الملك وقال له ما قالته ابنته.

وحين رأى الملك أنَّ الفتاة أكثر حكمةً منه، أمر أن تُحْضَر بين يديه. وحين انحنت أمام الملك، قال لها: «احزري، يا فتاة، ما الذي يمكن أن يُسْمَع من أبعد مسافة؟».

أجابت الفتاة: «جلالتكم، الرعد والكذب يمكن أن يُسْمَعا من أَبْعد مسافة».

عندئذٍ، أمسك الملك لحيته والتفت إلى حاشيته، وسألهم: «احزروا كم تساوي لحيتي؟». فقال بعضهم الكثير، وردّد ذلك الآخرون؛ لكن الفتاة لفتت الملك إلى أنّ أحداً من الحاشية لم يحزر الجواب، وقالت: «لحية الملك تساوي ما تساويه أمطار ثلاثة أصياف». فذُهِلَ الملك كثيراً، وقال: «ذلك هو؛ لقد حزرت الفتاة!» ثم سألها إنْ كانت ترضى به زوجاً، وأضاف إنّه سيتزوّجها فحسب إن كانت ترضى.

انحنت الفتاة وقالت: «كما تشاء جلالتكم! لكنني أتوسّل إليك أن تكتب بخطّ يدك على ورقةٍ هذا الوعد، أنّك إذا ما نفرت مني يوماً، وأردت أن تبعدني عنك، فسوف يُؤْذَن لي أن آخذ معي من القصر شيئاً واحداً أرغب فيه أكثر من أيّ شيءٍ آخر».

وافق الملك، وقطع على نفسه الوعد.

وبعد فترةٍ من العيش الهانئ معاً، غضب الملك ذات يوم، وقال لزوجته: «لن تكوني زوجتي بعد الآن، وآمرك أن تغادري القصر!».

فأجابت الملكة: «سمعاً وطاعة، يا جلالة الملك، ولكن دعني أقضِ الليلة في القصر. وفي الصباح أغادر». ولم يكن بمقدور الملك أن يرفض لها هذا الطلب.

وفي ذلك المساء، أثناء تناول العشاء، أضافت الملكة شيئاً إلى الشراب، وقدّمته إلى الملك ليشرب، قائلةً: «طِبْ نَفْساً، أيها الملك! غداً نفترق، ولتثق أنني سأكون أسعد مما كنتُ حين التقيتك أول مرّة».

شرب الملك، وسرعان ما غطَّ في النوم. عندئذٍ أَمَرَت الملكة بأن تُجَهَّز عربتها، وتحملها والملك إلى الكوخ.

وفي الصباح، حين أفاق الملك في الكوخ ورأى أين هو، صاح: «ما الذي جاء بي إلى هنا؟».

فأجابت الملكة: «أنا جلبتك».

فسأل الملك: «كيف تجرئين على فعل ذلك؟ ألم أَقُل لك إنني ما عدتُ أريدكِ زوجةً؟».

لكن الملكة أخرجت وعد الملك المكتوب، وقالت: «أجل، لقد قُلْتَ لي ذلك؛ ولكن انظر، لقد كتبتَ ووعدتَ بأن يؤذن لي أن آخذ معي من القصر ما أرغب فيه أكثر من أي شيء آخر».

حين رأى الملك الورقة، قبّل زوجته، وعاد معها إلى القصر.

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

عاش في الأيام الخوالي زوج وزوجة وابنهما الوحيد. وحين كبر الفتى دفعه والداه إلى تعلّم شيء ينفعه في قابل الأيام. كان فتىً لطيفاً هادئاً ورعاً. وبعد أن أنهى دراسته أعطاه والده سفينةً مُحَمَّلَةً بأصناف البضائع، كي يطوف أرجاء العالم ويتاجر، ويصبح غنياً، ويكون عوناً لوالديه في شيخوختهما. فأَبْحَر الفتى، وفي يوم من الأيام التقت سفينته مركباً تركياً سمع فيه نحيباً وعويلاً عظيمين. فقال للبحارة الأتراك: «بالله عليكم، ما هذا العويل العظيم على متن سفينتكم؟». فأجابوا: «إننا نحمل عبيداً أسرناهم من مختلف البلدان، وأولئك الذين يرسفون في الأغلال هم الذين ينتحبون».

فقال: «أرجوكم، أيها الإخوة، سلوا قبطانكم إنْ كان يبيعني هؤلاء العبيد».

سُرَّ القبطان لهذا الاقتراح، وبعد كثير من المساومة أعطى الشاب القبطان سفينته الملأى بالبضائع، وأخذ مقابلها السفينة الملأى بالعبيد.

عندئذ، أحضر الشاب العبيد أمامه، وسأل كلاً منهم من أين أتى، وقال لهم جميعاً إنَّ لهم الحرية في أن يعودوا إلى بلدانهم. وفي النهاية أتى إلى عجوز تتمسّك بفتاة فائقة الحسن، فسألهما عن بلدهما. فأخبرته العجوز، وهي تنتحب، إنهما من بلاد نائية، وقالت: «هذه الصبيّة هي ابنة الملك الوحيدة، وأنا مربيتها، وأرعاها منذ طفولتها. وفي يوم مشؤوم مضت تتمشّى في حديقة بعيدة عن القصر، فرآها هـؤلاء الأتـراك الأشرار واختطفوها. ومن حسن الحظّ أنني كنت على مقربة، وحين سمعت صراخها هُرعت لمساعدتها، فاختطفني الأتراك أيضاً، وأتوا بنا إلى متن هذه السفينة». ثمّ رجته العجوز والفتاة الحسناء أن يأخذهما معه، لأن بلادهما بعيدة، وما من وسيلة لديهما للوصول إلى هناك. فتزوج الشاب الفتاة، وعاد بها إلى موطنه.

وحين وصل إلى هناك سأله الوالد عن سفينته وبضائعه، فأخبره بما جرى، وكيف أعطى قاربه بحمولته مقابل العبيد الذين أطلقهم. وقال أيضاً: «هذه الفتاة ابنة ملك، والعجوز مربيتها، ولأنهما لا تستطيعان العودة إلى بلادهما، رَجَتاني أن تبقيان معي، فتزوجت الفتاة».

غضب الوالد غضباً شديداً لما سمع، وقال: «يا ولدي التّعِس! ماذا فعلت؟ لماذا بدّدت ثروتي بلا سبب وبمحض إرادتك؟». وطرده من البيت.

عاش الولد وزوجته ومربيتها فترةً طويلةً في القرية ذاتها، ولم يكلّ عن طلب غفران والده، من خلال مساعٍ قامت بها أمّه والأصدقاء، راجياً إيّاه أن يعطيه سفينة أخرى محمّلةً بالبضائع، متعهّداً أن يكون أكثر حكمةً منذ الآن فصاعداً. وبعد حين أشفق الوالد عليه، وتلقّاه ثانية في بيته، مع زوجته ومربيتها. وسرعان ما أعطاه سفينة أخرى، أكبر من الأولى، ملأها بمزيدٍ من البضائع القيّمة، فأبحر بها، تاركاً زوجته ومربيتها في بيت والديه. وفي يوم من الأيام وصل إلى مدينة حيث وجد العسكر منهمكين في سَوْق بعض القرويين التعساء إلى السجن. وحين سألهم: «لماذا تسوقون هؤلاء المساكين إلى السجن؟». أجاب العسكر: «لم يؤدّوا ضرائب الملك، لذلك نأخذهم إلى السجن».

توجّه الشاب عندئذٍ إلى الحاكم وسأله: «قُلْ لي، أرجوك، بكم يدين هؤلاء السجناء المساكين».

فأخبره الحاكم.

عندئذٍ باع الشاب بضائعه وسفينته، وأدّى ديون السجناء جميعاً، وعاد إلى موطنه خالي الوفاض. وحين وصل خرَّ على قدمي والده وأخبره بما فعل، ورَجاه أن يسامحه. غير أنَّ غضب الوالد هذه المرّة، كان أكبر من المرّة السابقة بكثير، وطرد ابنه من حضرته. وما الذي يسع الولد الشقيّ أن يفعله في هذا العُسر الشديد؟ كيف يمكن أن يتسوّل، وأهله ذوو يُسْرٍ بالغ؟ بعد فترة ألحّ أصدقاؤه على الوالد أن يتلقّاه ثانية، لأنَّ المعاناة الشديدة جعلته أكثر حكمةً، كما قالوا. رضخ الوالد في آخر الأمر، وأخذه من جديدٍ إلى بيته، وأعدّ له سفينة أجمل من السفينتين السابقتين وأكثر امتلاءً. فأمر الولد بأن تُرْسَم صورة زوجته على مُقَدَّم السفينة، وصورة مربيتها على مُؤَخَّرها، وبعد طلب الإذن من والده ووالدته وزوجته وجميع أصدقائه، أَبْحَر للمرّة الثالثة.

بعد بضعة أيام وصل إلى مدينة كبيرة، يعيش فيها ملك، فأطلق تحيةً للمدينة وهو يلقي المرساة. فتعجّب السكّان جميعاً، وكذلك ملكهم، ولم يكن أحدٌ يعلم من يكون القبطان في هذه السفينة الغريبة. وفي الظهيرة بعث الملك واحداً من وزرائه لسؤاله من يكون، وما سبب مجيئه؛ وحمّل الوزير رسالةً تفيد أنَّ الملك نفسه سوف يأتي في التاسعة من صباح الغد ليرى السفينة. وحين وصل

الوزير رأى على مقدّم السفينة صورة ابنة الملك، وعلى مؤخّرها صورة مربيتها العجوز، و لم يجروْ من شدّة الدهشة والسرور أن يصدّق عينيه، ذلك أنّه كان قد وُعِدَ بالزواج من الأميرة وهي لا تزال طفلة، قبل أن يأسرها الأتراك بزمن طويل.

غير أنَّ الوزير لم يُخْبر أحداً بما رآه.

وفي التاسعة من صباح اليوم التالي، صعد الملك ووزراؤه على متن السفينة، وسألوا القبطان من يكون، ومن أين جاء.

وبينما كانوا يجولون في السفينة، رأى الملك صورة فتاة على مقدّمها وصورة عجوز على مؤخّرها، وتعرّف ملامح ابنته ومربيتها العجوز اللتين اختطفهما الأتراك. لكن سروره كان عظيماً فلم يجروْ أن يصدّق عينيه، ودعا القبطان أن يأتي إلى قصره في الظهيرة لكي يحكي له عن مغامراته، عساه يكتشف على هذا النحو إن كان لآماله ذلك الأساس المتين.

عند الظهيرة، ونزولاً عند رغبة الملك، مضى القبطان إلى القصر، فبادره الملك مباشرةً بالسؤال عن السبب الذي دفعه إلى رسم صورة الفتاة على مقدّم السفينة وصورة العجوز على مؤخّرها. وخمّن القبطان في الحال أنّ هذا الملك لابدّ من أن يكون والد زوجته،

فأخبره بكل ما جرى: كيف التقى السفينة التركية المحمّلة بالعبيد، وكيف افتداهم وأطلقهم. وقال: «هذه الفتاة، وحدها، ومعها مربيتها العجوز، لم يكن لديهما مكان تذهبا إليه، لأنّ بلدهما بعيد، ولذلك طلبتا أن تبقيا معي، فتزوجت الفتاة».

حين سمع الملك ذلك، صاح: «تلك الفتاة هي ابنتي الوحيدة، وقد اختطفها الأتراك الملاعين مع مربيتها العجوز. وأنت، لأنك زوجها، ستكون وريث عرشي. ولكن عُدْ في الحال إلى موطنك وأَحْضِر زوجتك لعلّي أراها، أرى ابنتي الوحيدة، قبل أن أموت. وأَحْضِر والدك ووالدتك وعائلتك كلّها. بِعْ كلَّ ما تملكونه في تلك البلاد، وتعالوا جميعاً هنا. والدك سيكون لي أخاً، ووالدتك أختاً، وأنت ولداً ووريثاً لعرشي. وسوف نعيش جميعاً في قصر واحد». ثم دعا الملكة، وجميع وزرائه، وأَخْبَرَهم بكلّ ما جرى لابنته. فكانت بهجة عظيمة وفَرَح كبير في البلاط كلّه.

بعد ذلك أعطى الملك صهرَه سفينته الضخمة لكي يعود بالأميرة والعائلة كلّها. فترك القبطان سفينته هناك، لكنه طلب من الملك أن يرسل معه واحداً من وزرائه، «خشية ألاّ يصدّقوني»، كما قال؛ فأعطاه الملك مُرافقاً في رحلته الوزير الذي سبق أن وعده بالزواج من الأميرة. وحين بلغوا الميناء سالمين، دُهِش والد

القبطان لعودة ولده السريعة، ومعه هذه السفينة المذهلة.

قصّ القبطان عليهم ما جرى؛ فسُرَّت أمّه وزوجته، والمربية العجوز بالأخصّ، أعظم السرور حين سمعن الأنباء الطيبة. ولأنّ وزير الملك كان حاضراً ليشهد على صدق هذه الأنباء الغريبة، فإن أحداً لم يشكك في الأمر. ووافق الوالد والوالدة على بيع أملاكهما جميعاً والذهاب للعيش في قصر الملك.

غير أنّ الوزير عَزَم على أن يقتل هذا الوريث الجديد للملك وزوج الأميرة التي وُعِد بالزواج منها. وحين ابتعدوا في البحر، دعاه إلى ظهر السفينة ليتجاذب معه أطراف الحديث. وكانت سريرة القبطان تلك السريرة الصافية، فلم يشتبِه بأيّ شرّ، وصَعَد إلى ظهر السفينة في الحال، فأسرع الوزير بالقبض عليه وإلقائه في اليمّ.

كانت السفينة تُبْحِر مسرعةً، والظلام قد حلّ، فلم يستطع القبطان أن يلحق بها، وبقي وحيداً في المحيط الشاسع. أمّا الوزير فمضى بكلّ هدوء كي ينام.

وكان من حسن الحظّ أنّ الأمــواج حملت وريث الملك الشاب إلى صخرة قرب الشاطئ، غير أنَّ تلك الأرض، كانت بلاداً صحراوية، وما من أحد ليمدّ له يد العون. أمّا من بقوا على

متن السفينة، واكتشفوا صبيحة اليوم التالي أنه اختفى، فراحوا ينتحبون ويعولون، ظنّاً منهم أنّه سقط في البحر في الليل وغرق. وقد ندبته زوجته على نحوٍ خاص، لأنهما كان يحبّان واحدهما الآخر حباً جمّاً. وحين وصلت السفينة مدينة الملك، وأخبروه بالمصيبة التي أحاقت بهم، اضطرب الملك، وحزن البلاط كلّه أشدّ الحزن. وأبقى الملك والديّ الشاب وعائلته بقربه كما رتّب أن يفعل، لكن ذلك لم يُعَزِّهم بالخسارة الفادحة.

في هذه الأثناء، كان صهر الملك جالساً على الصخرة، يعيش على الطحالب التي نَمَت هناك، وقد سفعته الشمس التي لم يكن ثمّة ملجأ يحجبها عنه. أمّا رداؤه فقد اتّسخ وتمزّق، وما كان لأحد أن يعرفه وهو بهذه الصورة. ثمّ إنّه ما من بشر حيّ في أيّ مكان كي يسعفه. وأخيراً، بعد خمسة عشر يوماً بلياليها، لمح شيخاً على الشاطئ، منحنياً فوق عكّازه، ومنهمكاً في صيد السمك. عندئذٍ صاح وريث الملك بالشيخ، وتوسّل إليه أن يعينه على مغادرة الصخرة. فوافق الشيخ، قائلاً: «إذا ما دفعت مقابل ذلك».

فأجاب الشاب بحزن: «وأنّى لي أن أدفع وأنا لا أملك شيئاً، كما ترى، حتى إنّ ثيابي ليست سوى خرق بالية».

فصاح الشيخ: «ذلك لا يهمّ. لديّ هنا قلم وورقة، إذا كنت

تعرف كيف تستخدمهما، فاكتب عهداً أن تعطيني نصف ما تملكه، ثمّ وقّع على ذلك».

وافق الشاب بسرور، فخاض الشيخ في الماء متوجّهاً إليه، ووقّع الورقة، ثم حمله الشيخ إلى الشاطئ. فراح يطوف من قرية إلى قرية، عاري القدمين، جائعاً، حزيناً، وتسوّل بعض الثياب يستر بها بدنه.

بعد ثلاثين يوماً من التجوال على غير هدى، قاده حسن الطالع إلى مدينة الملك، فمضى وجلس على باب القصر، وفي إصبعه خاتم زفافه، الذي نُقِش عليه اسمه واسم زوجته. وفي العشيّة، أخذه خدم الملك إلى الفناء، وأعطوه ما بقي من عشائهم ليأكل. وفي الصباح وقف على باب الحديقة، لكن البستاني جاء وأبعده، قائلاً إنّ الملك وعائلته على وشك القدوم من ذلك الطريق. فابتعد الشاب قليلاً، وجلس قريباً من زاوية الحديقة، وسرعان ما رأى الملك يتمشّى مع أمّه، وأباه مع الملكة، وزوجته مع الوزير، عدوه اللدود. ولم يكن يرغب آنئذٍ في أن يظهر لهم، غير أنّ زوجته، حين مرّوا بقربه وأعطوه ما يُعطَى للمتسوّلين، لاحظت خاتم الزواج في إصبع اليد التي امتدّت لتأخذ النقود. ولأنّه ما كان ليخطر لها أنّ

هذا المتسوّل يمكن أن يكون زوجها، قالت: «أرني الخاتم، الذي في إصبعك». فخاف الوزير الذي كان يتمشّى بقربها، وقال: «هيا، كيف تكلّمين هذا الأشعث؟»، لكنها لم تُصْغِ إليه، وأخذت الخاتم، وقرأت عليه اسمها واسم زوجها. واضطرب قلبها لمرأى العلامة على الخاتم، لكنها أخبرت والدها الملك بأنها تعرّفت إلى خاتم زواجها في يد الشحّاذ الجالس في طرف الحديقة، وقالت: «أرجوك أن تحضره، علّنا نعلم كيف انتهى الخاتم إليه».

عندئذٍ أرسل الملك خدمه ليجدوا الشحّاذ، فأحضروه إلى القصر. وسأله الملك من أين أتى، وكيف حصل على ذلك الخاتم. فلم يعد بوسعه أن يتمالك نفسه، وأخبَرَهُم كيف ألقاه الوزير الخائن عن ظهر السفينة، وكيف قضى خمسة عشر يوماً بلياليها على الصخرة الجرداء، وكيف نجا.

«ها أنتم ترون الآن كيف أعادني الرب وحسن المعاملة إلى زوجتي وأهلي».

وحين سمعوا ذلك، لم يكد أحدٌ منهم يقوى على الكلام من شدّة الفرح. واستدعى الملك الوالد والوالدة، وأعاد على مسامعهما ما جرى لولدهما.

وسرعان ما أحضر الخدم ثياباً جديدةً فاخرة، وأدخلوه الحمام وألبسوه. وتواصلت الأفراح العظيمة أياماً كثيرة، ليس في القصر وحسب، بل في المدينة برمّتها، وتُوّج الشاب ملكاً. أمّا الوزير فقد أُلْقيَ عليه القبض بأمرٍ من الملك، وسُلِّم لصهر الملك كي يعاقبه كما يشاء. لكن الملك الشاب لم يأذن بإعدامه، بل غفر له، شريطة أن يغادر المملكة في الحال.

وبعد بضعة أيام، جاء الشيخ الذي أنقذ الملك الشاب، وأحضر معه عهده المكتوب. وحين أخذ الملك الورقة، وقرأها، قال: «اجلس، يا شيخي. أنا اليوم ملك، غير أنني لَكُنْتُ أفي بعهدي، وأعترف بتوقيعي، حتى لو كنتُ شحّاذاً. ولذلك سوف نقتسم كلّ ما أملك».

وهكذا تناول الكتاب وراح يقتسم المدائن.

وكان يدوّن كلّ ذلك على خارطة، وهو يقول: «هذه لي، وهذه لك»، إلى أن اقتسما كلّ شيء، من أعظم مدينة إلى أفقر ثكنة.

قبل الشيخ القسمة لكنه لم يلبث أن أهداها ثانيةً إلى الملك الشاب، قائلاً: «خذها! لست عجوزاً، بل ملاكاً من عند الله! أرسلني لإنقاذك، من أجل أعمالك الخيِّرة. فاحكم الآن واهناً،

وليَدُمْ عزّك».

ثم اختفى المـلاك؛ وحكم الملك البلاد في سعادةٍ وهناءٍ عظيمين.

سباق الكذب

في يوم من الأيام بعثَ أبٌ بابنه إلى المطحنة كي يطحن الحبَّ؛ غير أنه قبلَ أن يذهب أوصاه ألاّ يطحنه في المطحنة التي يصادف أن يلتقي فيها رجلاً اسمه «أَمْرَدْ»[1]. وجاء الصبي إلى مطحنة، لكنه وجد «أَمْرَد» هناك.

قال له: «حفظكَ الله، يا أَمْرَد».

فردَّ الرجل: «حفظك الله أنت أيضاً، يا بنيَّ».

وسأل الصبي: «هل لي أن أطحن حبّي هنا؟».

فأجاب أَمْرَد: «ولِمَ لا؟ سرعان ما إنتهي من حبّي، ويمكنك أن تطحن حبّك بقدر ما تشاء».

بيد أنَّ الصبي تذكّر نصيحة والده، وغادر المطحنة قاصداً غيرها. لكن أَمْرَد أَخَذَ بعض الحبّ، ومضى مسرعاً عبر طريقٍ

(1) الـ «أَمْرَد»، في الحكايات القومية الصربية، تجسيدٌ للحذق والنباهة؛ ضَرْبٌ من «يانكي» فائق (المؤلف).

أقصر إلى المطحنة التي ذهب إليها الصبي، فسبقه إليها، ووضع فيها بعضاً من حبّه ليُطْحَن. وحين وصل الصبي أدهشه أن يجد أَمْـرَد هناك، ومضى من هناك قاصداً مطحنة ثالثة لكن أَمْرَدْ سلك طريقاً مختصرة، وبلغ هذه المطحنة قبل الصبي، وقدّم بعضاً من حبّه ليُطْحَن. ثم فعل الشيء ذاته في المطحنة الرابعة، حتى إنَّ الصبي كان قد تعِبَ، وتملّكته فكرة أنّه سيجد أَمْرَد في كلّ مطحنة، فأنزل كيسه، وقرّر أن يطحن حبّه في هذه المطحنة، على الرغم من وجود أَمْرَد.

وحين دُفِع حَبُّ الصبي ليُطْحَن. قال له أَمْرَد: «اسمع، يا بني. دعنا نعمل كعكةً من طحينك».

كان الصبي يفكّر طوال الوقت بكلام والده، لكنه لم يتمالك نفسه. فقال: «حسنٌ، سوف نعمل كعكةً».

نهض أَمْرَد وراح يمزج الطحين بالماء، الذي أَحْضَرَه الصبي، وظلَّ يمزج ويمزج إلى أن طُحِنَ الحَبُّ كلّه، وتحول الطحين برمّته إلى رغيف هائل. عندئذٍ أضرما ناراً، وخبزَا الخبز، وحين نضج، أخذاه ووضعاه قبالة حائط.

قال أَمْرَد: «يا ولدي، اسمعني. لو قسمنا الرغيف فيما بيننا

لما كَفَتْ أيّاً منّا حصّتُه، فدَعْنا نتبارى في الكذب، ومن يكذب أعظم كذبة يحظى بالرغيف كلّه».

فكّر الصبي في نفسه: «لم يعد بمقدوري أن أتراجع، فدعني أفعل ما بوسعي ثم أمضي». وقال لأمرد: «حسنٌ، ولكن أنت تبدأ».

أطلق أَمْـرَدْ عندئذٍ أكاذيب مختلفة كثيرة، وحين تعب من الكذب، قال له الصبي: «أوه! يا عزيزي أَمْرَد، إنْ كان هذا كلّ ما لديك، فهو ليس بالكثير. اسمع فقط، واصبر قليلاً، وأنا أقصّ عليك حقيقةً واقعة. في أيام شبابي، حين كنت شيخاً ، كـان لدينا الكثير من قُفُر النحل، وكان شُغلي في كلّ صباح أن أعدّها. ولطالما عددتُ النحل بيسر، أمّا القُفُر فلم أستطع أن أعدّها. وذات صباح، بينما كنت أعدّ النحل، لفتني غياب النحلة الأفضل، فأسرجتُ الديك وامتطيت صهوته وانطلقت أبحث عن نحلتي. تتبّعت أثرها إلى شاطئ البحر، ووجدتُ أنها قد أَبْحَرَت، فتبعتها. وحين بلغتُ الضفّة الأخرى، وجدتُ أنّ رجلاً قد أمسك بنحلتي، وراح يحرث بها حقلاً لينثر فيه الذرة. فناديته: «تلك نحلتي! كيف استوليتَ عليها؟». فقال الرجل: «حسنٌ، يا أخي، إنْ كانت لك، خُذْها». وأعادها إليّ، ومعها كيس ممتلئ بالذرة. فألقيت الكيس على ظهري،

وأنزلت السرج عن الديك ووضعته على النحلة. ثم امتطيتها، وألقيت الديك خلفي، علّه يرتاح قليلاً. وبينما كنت أعبر البحر، انحلَّ واحدٌ من خيوط الكيس، وسقطت الذرة جميعاً في الماء.

وحين قطعتُ البحر كان الظلام قد حلّ، فنزلت عن صهوة النحلة وأطلقتها ترعى. أمّا الديك فربطته بقربي وأعطيته بعض التّبن؛ ثمّ استلقيت لأنام. وحين أَفَقْتُ في الصباح، وجدتُ أنّ الذئاب قد قتلت نحلتي وأكلتْها؛ والعسل قد سُفِحَ في الوديان حتى لتغوص فيه الكِعَاب؛ وعلى التلال حتى لتغوص فيه الرُّكَب. ورحت أفكّر بماذا يمكن أن أجمع كلّ ذلك العسل. وتذكّرت أن معي فأساً صغيرة، فمضيت إلى الغابة محاولاً قتل وحش، كي أصنع من جلده كيساً. وفي الغابة رأيت ظبيين يرقصان على ساق واحدة، فكسرت الساق بفأسي الصغيرة وأمسكت بكليهما. ومن هذين الظبيين سلَختُ ثلاثة جلود وصنعت ثلاثة أكياس، جمعت فيها العسل كلّه. ووضعت الأكياس ممتلئة بالعسل على صهوة الديك، وأسرعت عائداً إلى البيت. وحين وصلت وجدت أنَّ والدي قد وُلِدَ للتو، فبعثوا بي إلى السماء لأُحضِرَ بعض الماء المقدّس. وبينما كنت أفكر كيف أصعد إلى السماء، تذكّرتُ الذرة التي سقطت في

البحر. وحين وصلت البحر وجدتها قد نمت وكبرت حتى بلغت السماء، فتسلقتها وصعدت إلى هناك. وحين وصلت السماء وجدت أن الذرة قد نضجت، وأنَّ من التقيته هناك قد حصدها، وصنع منها رغيفاً، فَتَّ منه كسرات في الحليب الساخن، وراح يأكل. فحييته، قائلاً: «كان الله في عونك!» فأجاب: «كان الله في عونك أيضاً!». ثم أعطاني الماء المقدّس وتهيأتُ للعودة. لكنني وجدت أن مطراً عظيماً قد هطل في هذه الأثناء، فارتفع البحر وابتلع الذرة بأجمعها. فقلقت كثيراً ورحت أتساءل كيف أنزل ثانية إلى الأرض. وتذكّرت أخيراً أنَّ شعري طويل، حتى إنّه يصل الأرض لو وقفت مستقيماً، ويصل أذني لو جلست، فأخذت السكين ورحت أقطع شعرة بعد أخرى، ثم أربطها معاً وأنا أهبط عليها. وفي هذه الأثناء حلّ الظلام، فعقدت في الشعر عقدةً، وعزمت أن أستريح على تلك العقدة الليل بطوله. ولكن كيف لي أن أفعل ذلك من غير نار؟ كانت معي قدّاحة، لكنه لم يكن لديّ حطب! فتذكّرت عندئذٍ أنَّ ثمّة إبرة للخياطة في مكان ما من معطفي، فوجدتها، وكسرتها قِطَعاً وأضرمت ناراً عظيمة، وحين تدفّأت جيداً استلقيت قرب النار ونمت. نمت عميقاً، غير أن المؤسف هو أنَّ شرارةً من النار أحرقت الشعر كلّه، فهويت إلى الأرض وأنا أتقلّب رأساً على عقب، ثم غصتُ في الأرض حتى حزامي. والتفتُّ حولي لأرى

كيف يمكن أن أخرج، وحين لم أرَ عوناً بقربي، هُرعتُ إلى البيت لأُحضر الرفش وعدتُ وأخرجتني. عندئذٍ أخذت الماء المقدّس إلى والدي. وحين وصلت إلى البيت وجدت الحصّادين يعملون في حقل القمح. وكان القمح مرتفعاً كثيراً، حتى إنَّ الحصّادين كادوا أن يحترقوا. فصرخت بهم: «لماذا لا تُحضروا فرسنا إلى هنا فطولها يومان وعرضها يوم ونصف، وعلى صهوتها نَمَت أشجارٌ ضخمة؟ هاتوها علّها تُلقي على الحقل بشيء من الفيء! فأسرع والدي بإحضار الفرس، وراح الحصّادون يحصدون في فيئها مسرورين. عندئذٍ أخذت وعاءاً كي أحضر بعض الماء. لكن الماء كان متجمّداً، فأخذت رأسي وكسرت به الجليد. ثم ملأت الوعاء بالماء، وحملته إلى الحصّادين. وحين رأوني صرخوا جميعاً: «ولكن أين رأسك؟». فمددت يدي أتلمّس رأسي، ووجدت، واحسرتاه، أن ما من رأس على كتفي. فقد نسيته، تركته عند الماء. ولذلك عدت مسرعاً، لكن ثعلباً كان قد سبقني إلى هناك، وانتزع دماغي من رأسي كي يأكله. فدنوت ببطء وضربت الثعلب ضربةً عنيفةً، ففرَّ هارباً، وفي فراره سقط كتاب صغير من جيبه. وحين فتحت الكتاب، قرأت فيه: «الرغيف لي كله، فلا يحصل منه أمرد على شيء!». وعندئذٍ أمسك الصبي بالرغيف وعدا نحو البيت، بينما راح أمرد يراقبه دون حراك.

زوجة الأب الشريرة

كانت مرّةً زوجةُ أبٍ شريرة تكره ابنة زوجها أشدّ الكراهية، لأنها كانت أجمل بكثير من ابنتها التي كانت معها في بيت زوجها. ولم يطل الأمر بالوالد حتى تعلّم هو أيضاً أن يكره ابنته: فكان يوبّخها ويضربها، إرضاءً لزوجته. وفي يوم من الأيام قالت له زوجته: «دَعْنا نُبْعد ابنتك! ولتجرّب حظّها في هذه الدنيا!»، فسألها الرجل: «إلى أين نبعدها؟ وأين يمكن للفتاة المسكينة أن تمضي وحيدةً؟». فأجابت الزوجة: «إنْ لم تَقُمْ بذلك، يا زوجي، فلن أعيش معك بعد الآن. أفضل لك أن تخرجها من البيت في الغد. خُذها إلى الغابة، وغافِلْها هناك وعُدْ مسرعاً!» وظلّت تلحّ على ذلك إلى أن وافق في النهاية، لكنه قال: «أعِدّي للفتاة شيئاً في رحلتها على الأقلّ، لئلا تموت من الجوع في أول يوم».

فأعدّت الزوجة كعكةً، وفي الصباح الباكر، أخذ الأب الفتاة بعيداً إلى قلب الغابة، وهناك تركها وعاد إلى البيت.

هكذا بقيت الفتاة المسكينة وحيدةً، وهامَتْ على وجهها طيلة اليوم باحثةً عن سبيلٍ في الغابة، من دون أن تجد السبيل الذي يخرجها من هناك. وحين حلّ الظلام تسلّقت شجرة كي تمضي الليل فوقها، خشية أن تفترسها وحوش البرية إذا ما بقيت على الأرض. والحقّ، أنّ الذئاب لم تكفّ عن العواء تحت الشجرة طوال الليل، بينما الفتاة ترتجف وترتعش ولا تكاد تمسك نفسها عن السقوط. وحين بزغ الفجر نزلت عن الشجرة وراحت تطوف من جديد، آملةً أن تجد سبيلاً للخروج من الغابة. لكن الغابة كانت تغدو أكثف وأكثف، وتبدو كأنها بلا نهاية. وفي المساء، بينما كانت تبحث عن شجرة يمكن أن تقضي عليها الليل آمنةً، رأت فجأة شيئاً يلمع. فمضت صوبه، آملةً أن تجد مأوى، إلى أن وصلت في النهاية إلى منزل واسع جميل. كانت الأبواب مفتوحةً، فدخلت، وجالت في حجراتٍ كثيرة فسيحة، كلّ واحدة منها أجمل من الأخرى. وعلى منضدة في إحدى الغرف وجدت قنديلاً مضاءً. وخطر لها أنّ هذا البيت لا بدّ أن يكون بيتاً لبعض اللصوص، غير أنها لم تخفْ، إذْ قالت لنفسها: «لدى الأغنياء ما يبرّر خوفهم من اللصوص، أما إنا فليس لديّ ما يبرّر ذلك، سأقول لهم إنّه يسرّني أن أقوم على خدمتهم مقابل كسرة خبز».

عندئذ أخرجت الكعكة من حقيبتها، وصلّت، ثمّ بدأت تأكل. وما إن بدأت تأكل حتى دخل ديك إلى الغرفة، وقفز إلى المنضدة كي يصل الكعكة، فأخذت الفتاة قطعة صغيرة وأعطتها الديك. ثم جاء كلب صغير وراح يتقافز حولها بلطفٍ، فأخذت من الكعكة قطعةً للكلب الصغير، ووضعته في حجرها، وراحت تلاطفه وتطعمه. وبعد ذلك جاءت قطة أيضاً، فأطعمتها الفتاة أيضاً.

أخيراً سمعَت الفتاة هديراً كما لو أنّ وحشاً عظيماً كان يشقّ طريقه نحوها، وفزعت أشدّ الفزع حين دخل الغرفة أسدٌ. لكن هذا الأسد راح يهزّ ذيله على نحوٍ ودود، وبدا بالغ اللطف، فالتقطت أنفاسها، وأعطته قطعة من الكعكة. أخذ الأسد القطعة وبدأ يلعق يد الفتاة، إلى أن زالت مخاوفها جميعاً، وأخذت تربت عليه وتطعمه بقية الكعكة. فجأةً سمعت الفتاة قرقعة سلاح، ولم يلبث أن دخل الغرفة مخلوقٌ بإهاب الدبّ، وهُرِع الديك والكلب والقطة والأسد جميعاً إلى هذا المخلوق وراحوا يتقافزون من حوله بحبٍّ، مبدين عن فرحتهم الغامرة بشتى السبل. وحسبت الفتاة هذا المخلوق وحشاً غريباً، وتوقّعت أن يثب عليها ويفتك بها. غير أنّه ما إن خلع هذا الكائن المخيف عن رأسه وكتفيه إهاب الدبّ

حتى تألّقت الغرفة وسطعت ببريق ردائه الذهبي. وكادت الفتاة تُجَنّ حين رأت أمامها رجلاً وسيماً، بلباس فاخر. لكنه اقترب منها وقال: «لا تخافي، يا عزيزتي! لستُ بالرجل السيء، أنا ابن الملك، وحين أرغب في الصيد أجيء إلى هنا متنكراً بإهاب الدبّ هذا لئلا يعرفني الناس. وأولئك الذين يرونني يحسبونني شبحاً ويفرّون مني. لا أحد يجرؤ على المجيء إلى هذا البيت، فهم يعلمون أنني كثيراً ما آتي إلى هنا. أنتِ الشخص الوحيد الذي تجرّأ على الدخول. كيف علمتِ أنني لستُ شبحاً؟».

فقالت له عندئذٍ إنها لم تسمع به أو بالبيت من قبل، لكن زوجة أبيها طردتها من المنزل، وأخبرته بكلّ ما جرى لها. وحين سمع ذلك، أسِفَ أشدّ الأسف، وقال: «زوجة أبيك تكرهك، أما الله فيلطف بك. سوف أتزوجك إذا ما رضيتِ بي، فهل توافقين؟». فأجابت: «أجل!». وفي اليوم التالي ذهب بها إلى قصر والده وتزوّجها. وبعد فترةٍ رجَتْهُ أن يأذنَ لها أن تذهب لرؤية والدها. فأَذِنَ لها أن تذهب، وارتدت ثياباً كلّها ذهب بذهب ومَضَت إلى بيت أبيها. وصادف أنّ الوالد كان خارج البيت، أمّا زوجة الأب فخشيت، حين رأتها قادمة، أن تكون قد جاءت لتنتقم. ولذلك سارعت لملاقاتها، وقالت: «لابدّ من

أنك تعلمين أنني أنا التي بعثْتُ بك إلى السعادة». فقبّلَتها الفتاة، وعانقت ابنتها. ثمّ قالت إنه يؤسفها كثيراً ألا تأسف تجد أباها في البيت، وأعطت زوجة أبيها أموالاً طائلة وهي تغادر. غير أنها ما إن أدارت ظهرها حتى هزّت زوجة أبيها قبضتها في إثرها وصاحت: «انتظري قليلاً. لن تكوني الوحيدة التي ترتدي مثل هذه الثياب؛ غداً أرسلُ ابنتي في أعقابك بالطريقة ذاتها!».

وحين عاد زوجها في المساء أخبرته بكلّ ما جرى، وقالت: «ما الذي تحسبه، يا زوجي؟ أليس أمراً حسناً أن أرسل ابنتي أيضاً إلى الغابة لتجرّب حظّها، فابنتك،= التي أرسلناها إلى هناك، لم تَعُدْ إلاّ وهي تلمع بالذهب؟».

تنهّد الرجل ووافق على الاقتراح. وفي اليوم التالي أعدّت الزوجة لابنتها كثيراً من الكعك واللحم المشوي، ثم أرسلتها مع الأب إلى الغابة. فخاض الرجل بها عميقاً في الغابة، كما فعل مع ابنته، وتركها هناك. وحين وجدت الفتاة أنّ الأب لم يَعُدْ، راحت تبحث عن سبيل للعودة، وسرعان ما رأت البيت الذي في الغابة. فدخلت إليه، وحين لم تجد أحداً، أقفلت الباب من الداخل، وهي تقول: «لو جاء الملك نفسه لما فتحتُ له الباب». ثم أخرجت من حقيبتها اللحم المشوي والكعك وراحت تأكل.

وبينما هي تأكل، دخل فجأةً كلٌّ من الديك والكلب والقطة وأخـذوا يتقافزون من حولها بحبٍّ، آملين أن تعطيهم شيئاً؛ لكنها غضبت أشدّ الغضب، وصاحت: «فليأخذكم الشيطان! لا يكاد أن يكون لديّ ما يكفيني: فهل تحسبون أنني ساعطيكم أيّاً منه؟»، ثم أخذت تضربهم. فراح الكلب ينبح، وحين سمعه الأسد اندفع نحوه غاضباً مهتاجاً، وأمسك بالفتاة وقتلها.

وفي اليوم التالي، خرج ابن الملك وزوجته إلى الصيد. وما إن رأت هذه الأخيرة ثوب أختها حتى عرفته، ثم جمعت أشلاء جسدها وأخذتها إلى زوجة أبيها. وفي هذه المرّة وجدت أباها في البيت، وسُرَّ كثيراً لسماع أنّ ابنته قد تزوجت من ابن الملك. وحين سمع بما جرى لابنة زوجته حزن كثيراً، لكنه قال: «لقد استحقت أمّها ذلك لأنها كرهتك من غير سبب. تلك هي عند البئر، سوف أذهب وأخبرها».

وحين سمعت زوجة الأب بما جرى لابنتها، قالت لزوجها: «لا أحتمل ابنتك! لا أحتمل النظر إليها! دعنا نقتلها وزوجها. وإنْ لم توافق ألقيت بنفسي في هذه البئر!». فأجابها: «لا يسعني أن أقتل ابنتي». فصاحت: «إنْ لم تقتلها، فأنا لا أطيق احتمالها!». وألقت بنفسها في البئر.

الفتاة الطائر

عاش مرّةً ملك لم يكن لديه سوى ولد واحد، وحين كبر هذا الولد بعث به أبوه ليطوف في أرجاء الدنيا، علّه يجد فتاةً تصلح أن تكون زوجة له.

انطلق ابن الملك في رحلته، وطاف في أرجاء الدنيا دون أن يجد في أيّ مكان فتاة يحبّها بما يكفي لأن يتزوّجها. وحين رأى أنّه قد تجشّم كلّ هذا العناء، وبدّد كلّ هذا الوقت والمال بلا طائل، عَزَم على الانتحار. وراح يتسلّق إلى قمة جبل شاهق، كي يلقي بنفسه من هناك؛ فقد بلغ به الأمر حدّ الرغبة في ألاّ يجد أحدٌ ولو عظمة من عظامه. وحين بلغ القمة، رأى صخرة ناتئة قد برزت من جانب القمة، فتسلّق ليرمي بنفسه عنها، لكنه سمع صوتاً خلفه ينادي: «توقّف! توقّف! يا رجل! توقف كرمى لله!». فنظر ابن الملك خلفه، وحين لم يرَ أحداً، سأل: «من الذي يكلمني؟ اظهر لأراك؟ حين تعلم مقدار بؤسي، لن تردعني عن قتل نفسي!».

ولم يكد يتلفّظ بهذه الكلمات حتى ظهر له شيخ بشعر أبيض كالصوف، وقال له: «أعلمُ عنك كلّ شيء. لكن اسمع! أترى ذلك التلّ المرتفع!» فقال الأمير: «أجل، أراه». فقال الشيخ: «وهل ترى فوقه كُتَل الرخام الكثيرة تلك؟» فأجاب الأمير: «أجل، أراها». فأكمل الشيخ، قائلاً: «حسنٌ، إذاً، على قمّة ذلك التلّ تعيش عجوزٌ ذهبية الشعر، تجلس ليلاً ونهاراً في ذلك الموضع، وتحمل في حجرها طائراً. كلّ من يحصل على ذاك الطائر يغدو أسعد إنسان في الدنيا. ولكن، حذار! إنْ كنت تريد أن تحاول الحصول عليه، لابدّ أن تمسك بشعر المرأة قبل أن تراك. فإن رأتك قبل أن تمسك شعرها، تحولتَ إلى حجر في ذلك المكان. وهذا ما جرى لكلّ أولئك الشباب الذين تراهم واقفين هناك، كأنهم كتلٌ من الرخام».

حين سمع ابن الملك كلّ هذا، راح يفكّر: سيّان بالنسبة إليّ إنْ متُّ هنا أم هناك. فإنْ أفلَحْتُ، كان ذلك رائعاً، وهكذا قصد التلّ. وحين بات قريباً من العجوز، سار نحوها بحذرٍ بالغ، آملاً أن يصل إليها دون أن تراه، ومن حسن حظّه أنّ العجوز كانت مستلقيةً و ظهرها إليه، تتشمّس وتلاعب الطائر.

وحين اقترب بما فيه الكفاية، وثب فجأةً وأمسك بشعرها.

فصرخت العجوز صرخةً اهتزّ لها التلّ برمّته كأنّ زلزالاً عظيماً قد حلّ به، لكن ابن الملك تشبّث بشعرها، وحين وجدَت أنّ ما من مفرّ قالت: «ما الذي تريده مني؟». فأجاب: «أن تعطيني الطائر الذي في حجرك، وتعيدي إلى الحياة كلّ هذه الأنفس!». فوافقت العجوز، وأعطته الطائر. ثم نفخت من فمها ريحاً زرقاء صوب الرجال المتحجرين، فعادوا أحياء للتوّ. أمّا ابن الملك، الذي بات الطائر بحوزته، فقد سُرَّ كثيراً، حتى إنّه راح يقبّله، وبينما هو يفعل ذلك، تحول الطائر إلى فتاة رائعة الجمال.

كانت الساحرة قد حوّلت هذه الفتاة إلى طائر، لعلّها تتمكّن بذلك من استمالة الشباب إليها. وسَرَّت الفتاة ابن الملك أشدّ السرور، فأخذها معه، وتهيّأ للعودة إلى موطنه. وبينما كان يهبط التلّ، أعطته الفتاة عصا، وأخبرتْهُ بأنّ هذه العصا ستقوم بكلّ ما يرغب فيه. وحين ضرب بها ابن الملك على الصخرة، ظهرت في الحال نقود ذهبية كثيرة، أخذا منها ما يلزم في رحلتهما. وخلال سفرهما بلغا نهراً عظيماً، ولم يجدا أيّ مكان يعبران منه، فمسّ ابن الملك سطح النهر بعصاه، فانشقّ الماء، وامتدّ أمامهما سبيلٌ من اليابسة، وتمكّنا

من عبور النهر. وبعد فترة صادفا قطيعاً من الذئاب انقضّ عليهما، وبدا على وشك أن يمزّقهما إرباً، لكن الأمير ضرب الذئاب بعصاه، فتحولت واحداً إثرَ آخر إلى نمْل. وأخيراً وصل ابن الملك إلى موطنه سليماً معافى ومعه حبيبته، وسرعان ما تزوجا، وعاشا معاً بسعادة وهناء.

السيّد حبّة الخردل

خرج ثلاثة أخوة مرّةً إلى الغابة القريبة لاختيار بعض الأشجار الصالحة للبناء. غير أنّهم قالوا لأمّهم، قبل الخروج، ألّا تنسى أنْ ترسل شقيقتهم خلفهم إلى الغابة ومعها غداؤهم. فأرسلت الأم الفتاة كما قالوا لها، وبينما هي في طريقها التقاها ماردٌ في الغابة، فحملها إلى كهفه حيث يعيش.

انتظر الإخوة طوال اليوم مجيء شقيقتهم، وراحوا يتساءلون لماذا نسيت أمّهم أن ترسل لهم الطعام. وفي النهاية، بعد أن قضوا في الغابة يومين، وتزايد قلقهم وغضبهم حيال هذا التأخّر، عادوا إلى البيت. ولدى وصولهم سألوا أمّهم لماذا لم ترسل أختهم بالطعام، كما وعدت أن تفعل، فردّت أنها قد أرسلت الفتاة منذ ثلاثة أيام مضت، وحارت كثيراً فيما أخّر عودتها.

حين سمع الإخوة الثلاثة هذا قلقوا أشدّ القلق، وقال الأكبر: «سأعود إلى الغابة لأبحث عن شقيقتي»، ومضى إلى هناك. وبعد أن جالَ لبعض الوقت رأى راعيةً، كانت ترعى قطيعاً من

الخراف. وسألها متلهّفاً إنْ كانت قد رأت أخته في الغابة، أو إنْ كانت تعلم أيّ شيء عنها. فردّت الراعية إنّها كانت قد رأت فتاةً تحمل الطعام بالفعل، لكنّ مارداً التقاها وحملها إلى كهفه. فطلب منها الأخ الأكبر عندئذٍ أن تدلّه على الطريق إلى كهف المارد؛ ففعلت. وكان الكهف متوارياً في وَهْدَة عميقة. فهبط الأخ الوَهْدَة في الحال، وصاح باسم شقيقته. وما لبثت الفتاة أن ظهرت في فم الكهف، وحين رأت أخاها الأكبر دعته إلى الدخول. فدخل، ودُهش كثيراً لرؤية أنّ الكهف المزعوم ليس في الحقيقة سوى قصر رائع. وبينما كان واقفاً هناك، يكلّم أخته ويسألها عن مقدار حبّها لبيتها الجديد، سمع في الهواء فوقه أزيزاً حاداً، ورأى بعد ذلك مباشرةً دبّوساً ثقيلاً يسقط على الأرض أمام الكهف مباشرةً. فسأل أخته، وقد أخذ منه الرعب والذهول كلَّ مأخذ، عمّا يعنيه هذا، فقالت له ألاّ يخاف، لأنّ ذلك ليس سوى الطريقة التي يُعْلِمها المارد من خلالها بعودته قبل ثلاث ساعات من وصوله، كي تبدأ بإعداد عشائه.

وحين حلّ الظلام عاد المـارد، وأدرك في الحال أنّ غريباً في المكان. وجواباً عن أسئلته الغاضبة، أخبرته الفتاة أنّ أخاها وحسب، قد جاء يزورهما. حين سمع المارد ذلك خرج إلى فم

الكهف، ونادى راعياً وأمره بأن يُذبَح أكبر خروف في قطيعه ويشويه. ولمّا بات اللحم جاهزاً دعا المارد أخا زوجته، وقال، وهو يقطع الخروف نصفين متساويين: «يا أخا زوجتي العزيز، اسمع جيداً ما أقوله؛ إن أكلتَ حصّتك من اللحم قبل أن آكل حصّتي، فسأدعك تقتلني، أمّا إن أكلتُ حصّتي أسرع من أكلك حصتك، فسوف أقتلك بلا ريب».

راح أخو الزوجة المسكين يرتجف من الفزع من رأسه حتى أخمص قدميه، ولأنه كان يخشى الأسوأ، حاول أن يأكل بأسرع ما أَمْكَنَه. غير أنّه لم يكد يبتلع لقمات ثلاث حتى كان المارد قد التهم حصّته من الخروف، وقتله، كما سبق أن هدّده.

انتظر الأخوان الآخران ووالدتهما متلهّفين ليروا إن كان الأخ الأكبر سوف يعود. وفي النهاية، حين لم يسمعوا أيّ شيء سواء عن أخيهم أم عن أختهم، قال الأخ الأوسط: «سوف أذهب وأبحث عنهما». ومضى إلى الغابة ذاتها التي ذهب إليها أخوه، والتقى هناك الراعية ذاتها ترعى الخراف، وسألها إنْ كانت قد رأت أخاه أو أخته. فأجابت الراعية كما أجابت أخاه الأكبر، فسألها، هو أيضاً، أن تدلّه على الطريق إلى كهف المارد، وحين قالت له، هَبَط الوهدة إلى أنْ بَلَغ المكان. وهناك نادى شقيقته

باسمها، فخرجت ودعته أن يدخل الكهف. ففعل، وجرى له ما جرى لأخيه؛ فحين أخفق في تناول حصّته من الخروف بأسرع من تناول المارد حصّته، قُتِلَ بدوره.

ولم يَطُل الوقت حتى سلك الأخ الثالث الدرب ذاته، باحثاً عن أخويه الأكبرين وأخته، ولمّا وجد كهف المارد، دُعِي مثلهما لتناول نصف خروف أو الموت. لكنه أخفق مثل أخويه من قبله، وواجه المصير الذي واجهاه. وهكذا قُتِلَ الإخوة الثلاثة جميعاً.

لم يبق في البيت سوى الوالدين، اللذين تضرعا إلى الله أن يرزقهما ولداً آخر، ولو لم يكن أكبر من حبّة الخردل، فأُجيب طلبهم، ولم يطُل الوقت حتى وُلِد لهم صبيّ صغير، بل بالغ الصِّغر حتى إنهما عمّداه باسم «حبّة الخردل».

وحين كبر الصبي بما فيه الكفاية خرج يلعب مع بقية الصبيان. وفي يوم من الأيام، قال له واحدٌ من هؤلاء في شجار: «عساك تلقى مصير أخوتك الثلاثة الكبار!» ولدى سماعه هذا، هُرِع حبّة الخردل إلى البيت في الحال، وسأل والدته عمّا يعنيه هذا الكلام. فاضطرت الأمّ أن تخبره كيف مضى أخوته الثلاثة إلى الغابة كي يبحثوا عن أختهم الضائعة، ولم يعودوا. وما إنْ سمع

حبّة الخردل ذلك حتى بدأ يبحث في البيت عن قِطَع من الحديد القديم، وحين وجد بعض الخردة، أخذها في المساء إلى الحدّاد، لكي يصنع منها دبّوساً. وفي الصباح التالي، عاد حبّة الخردل إلى الحداد، وسأله عن الدبّوس، فقال له، وهو يعطيه إيّاه: «ادفع لي، الآن، أجرتي». فردّ حبّة الخردل: «دعنا نرَ، أولاً، إن كان قوياً بما يكفي»؛ وقذفه في الهواء ووضع رأسه لكي يسقط الدبّوس عليه. وحين أصاب رأسه، تحطّم الدبّوس وتفرّق قِطَعاً؛ فغضب حبّة الخردل لرؤيته سوء صنع الدبّوس وقتَلَ الحدّاد. ثمّ جَمَع قطع الحديد ومضى يبحث عن حدّاد أفضل. وسرعان ما وجد حدّاداً آخر مستعدّاً أن يصنع له دبّوساً، لكنه طلب دوقاتية، لقاء ذلك. فقال حبّة الخردل إنّه سيدفع الدوقاتية عن طيب خاطر إذا ما صنع له الحداد دبّوساً قوياً، ومتيناً حقّاً. وفي الصباح التالي مضى ليسأل إنْ كان الدبّوس قد جهز، فقال الحداد: «أجل؛ لكن عليك أن تدفع الدوقاتية أولاً، ثم أعطيك الدبّوس». غير أنّ حبّة الخردل أجاب: «الدوقاتية جاهزة في جيبي، لكن يجب أن أرى أولاً إنْ كان الدبّوس جيداً قبل أن أدفع لك». وعندها تناول الدبّوس، وقذفه في الهواء، ووضع رأسه تحته وهو يسقط؛ ومن جديد غضب حبّة الخردل أشدّ الغضب وقتل هذا الحداد أيضاً.

وحين جَمَع حبّة الخردل قطع الحديد، حملها إلى حدّاد ثالثٍ، تعهَّدَ أن يصنع له دبّوساً جيداً، وطلب دوقاتية مقابل ذلك. وفي الصباح ذهب حبّة الخردل ليرى الدبّوس، وبعد أن جرَّبه ثلاث مرّات، كلّ مرّة يقذفه إلى أعلى في الهواء ويدعه يسقط على رأسه فتبرز نتوءات كبيرة، أقرّ أنّه راضٍ عنه، ودفع الدوقاتية للحداد كما وعد.

وإذ أصبح لدى حبّة الخردل دبّوس قويّ، انطلق في الحال إلى الغابة التي سبق أنْ ضاع فيها أخوته الثلاثة وأخته. وبعد أن هام لبعض الوقت، وصل إلى حيث جلست الراعية ترعى خرافها، فأخبرته، بعد سؤاله، أنها رأت أخوته الثلاثة يهبطون الوهدة بحثاً عن أختهم، لكنها لم تَرَهم يصعدون ثانيةً.

لم يَحُلْ ذلك دون أن يهبط حبّة الخردل الوهدة بعزيمةٍ ثابتة، وينادي أخته باسمها. وحين سمعت ذلك دُهِشَت كثيراً، وقالت لنفسها: «من الذي يمكنه أن يناديني باسمي، بعد أن قُتِل أخوتي جميعاً؟ ما من قريب آخر لي لكي يأتي ويبحث عني!» ثم مضت إلى مدخل الكهف، ونادت: «من الذي يناديني؛ لم يعد لديّ أخوة!».

فقال لها حبّة الخردل: «أنا أخوك الذي وُلِدَ بعد أن تركتِ البيت، واسمي هو حبّة الخردل!».

وحين سمعت الأخت ذلك، قادته إلى القصر، لكنه لم يكد يجد الوقت ليقول لها بضع كلمات حتى سُمِعَ أزيز حادّ في الهواء، وسقط دبّوس المارد على الأرض. فشعر حبّة الخردل بالفزع للحظةٍ، لكنه سرعان ما تمالك نفسه، وتناول الدبّوس عن الأرض وقذفه ثانيةً إلى المارد، الذي اعترته الدهشة وقال لنفسه: «من هذا الذي يعيد رمي دبّوسي إليّ؟ يبدو أنني وجدت أخيراً من يقدر على مقارعتي!».

وحين أتى المارد، سأل زوجته على الفور من الذي في الكهف، فأجابته: «إنّه أخي الأصغر!». فأمر المارد الراعي أن يحضر أكبر خروف في القطيع. وحين أحضره، ذبحه المارد بنفسه، وبينما كان يعدّه للشواء، قال لحبّة الخردل: «أتقلّبُ اللحم، أم تعتني بالنار؟». فقال حبّة الخردل إنّه يفضّل أن يجمع الحطب ويُضرِم النار؛ وخرج وطرح أرضاً بدبّوسه بعض الأشجار. وحملها إلى فم الكهف، وأضرم ناراً كبيرةً من أجل اللحم.

وحين شُويَ اللحم، قطعه المارد نصفين، وأعطى نصفاً لحبّة الخردل، قائلاً: «خُذ هذا النصف، وإنْ أكلته قبل أن آكل النصف الخاص بي أَمْكَنَك أن تقتلني؛ وإنْ لم تفعل، فلا شكّ أنّي سأقتلك!».

هكذا بدأ حبّة الخردل والمارد يأكلان بأقصى ما يمكنهما من سرعة، فابتلعا قطعاً كبيرة من اللحم، وكادا، في تعجّلهما، أن يختنقا. وفي النهاية، استطاع حبّة الخردل أن يتخلّص بالحيلة، من حصّته، وقَتَل المارد بحسب اتفاقهما. وبعد أن فعل ذلك، بمساعدة شقيقته، جَمَع كلّ الكنوز التي كوّمها المارد في قصره، وأخذها معه وعاد إلى البيت مع أخته، مما أثلج صدريّ والديهما.

بقي حبّة الخردل بعد ذلك مع والده ووالدته وأخته، وعاشوا عيشة مرفّهة على الكنوز التي جلبها من كهف المارد. غير أنّه رأى، في النهاية، أنّ للثروة آخِر، وقرّر أن يمضي في الدنيا ساعياً وراء حظّه.

وبعد سفرٍ طويل وصل يوماً إلى مدينةٍ كبيرة حيث رأى حشداً عظيماً متحلّقاً حول رجل يحمل في يده رمحاً حديدياً، ومن حينٍ لآخر يعصر قطراتٍ من الماء من ذلك الرمح. وبينما كان الحشد يشاهد، متعجّباً من قوة الرجل العظيمة ومُعْجَباً بها، تقدّم حبّة الخردل وسأله: «هل تظنّ أنّ هنالك رجلاً في الدنيا يفوقك قوّة؟». فأجاب الرجل: «هنالك رجلٌ حيٌّ واحدٌ يفوقني قوة، وهو شخص بعينه يُدْعى حبّة الخردل. يستطيع أن يتلقّى دبّوساً على رأسه من دون أن يتأذّى!».

عندئذ أَخْبَرَ حبّة الخردل الرجلَ من يكون، وعَرَض عليه أن يجوبا العالم معاً. فقال الرمّاح: «إنَّ هذا ليسرّني كثيراً. كيف يمكن لي أن أتحمّل ذلك السرور في أن أسافر مع شخص موضع ثقة مثلك!».

وفي سفرهما معاً وصلا ذات يوم إلى مدينة، ووجدا حشداً من الناس مجتمعاً، فتقدّما ليريا ما يجري، وشاهدا رجلاً جالساً على ضفّة النهر يدير بإصبعه الصغير دواليب تسعٍ من الطواحين. فقالا له: «هل في الدنيا من هو أقوى منك؟».

فأجابهما: «ليس هناك سوى رجلين أقوى مني، شخصٌ بعينه يُدْعى حبّة الخردل وآخر بعينه يُدعى الرمّاح». وحين سمعا ذلك، قالا له من يكونان، وعَرَضا عليه أن ينضمّ إليهما في أسفارهما في الدنيا.

قبل الطحّان العرض بسرور، وواصل الثلاثة الرحلة معاً.

وبعد فترةٍ وصلوا إلى مدينةٍ كان شعبها بأجمعه في حالةٍ من الهياج الشديد لأن أحداً كان قد سرق بنات الملك الثلاث، من دون أن يجرؤ أحدٌ على أن يخرج للبحث عن الأميرات على الرغم من الجوائز السخية التي عرضها جلالته. وما إن سمع

حبّة الخردل ورفيقاه بذلك حتى مضوا إلى الملك وعرضوا أن يبحثوا عن بناته الثلاث. غير أنّهم طلبوا من الملك أن يعطيهم، كي ينجزوا المهمة، مئة ألف حمل من الخشب. فأعطاهم الملك ما طلبوا، فأقاموا بألواح الخشب سياجاً حول المدينة بأكملها. وحين أتمّوا ذلك بدأوا يحرسون.

في صباح اليوم الأول أعدّوا ثوراً كاملاً لغدائهم، وتداولوا فيمن سيُعْنى باللحم من بين الثلاثة بينما يحرس الآخران السياج. قال الرمّاح: «أنا أبقى هنا وأُعْنى باللحم، وأُعِدُّ لكما الغداء حين تعودا من حراسة السياج». وكان كذلك. غير أنّه بينما كان الرمّاح يفكّر أنَّ الثور قد استوى دبّ الرعب في قلبه إذ رأى فجأةً رجلاً يقترب منه بجبهةٍ ارتفاعها ياردة كاملة ولحية طولها شبر، ويقول له: «صباح الخير!» لكن الرمّاح فرّ هارباً بدلاً من أن يجيب، فقد روّعه مظهر الرجل الغريب.

ظلّ أبو جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر هادئاً، وجلس والتهم الثور بأكمله. وحين أنهى غداءه نهض ليمضي في سبيله.

وبعد قليل جاء السيد حبّة الخردل والطحّان لكي يتناولا الغداء، ولأنّ الجوع كان قد بلغ منهما كلّ مبلغ، راحا يصرخان للرمّاح من بعيد: «فلنأكل في الحال!». لكن الرمّاح، الذي كان

مختبئاً في دغل، ردّ عليهما قائلاً: «لم يبق شيء نأكله! منذ قليل جاء أبو جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر والتهم الثور بأكمله حتى آخر لقمة! وقد خفت منه، فلم أنبس بشفةٍ حيال ذلك».

لامَ حبّة الخردل والطحّان رفيقهما أشدّ اللوم لأنه سمحَ بأن يُسْرَق غداؤهما بأكمله دون أن يحاول ولو مرّةً واحدةً مَنْعَ ذلك، وقال الطحّان، مزدرياً: «حسناً، سوف أُعنى في الغد باللحم، وليأتِ أبو جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر إنْ أراد!».

هكذا بقي الطحّان في اليوم التالي لكي يشوي اللحم بينما ذهب رفيقاه ليحرسا السياج الذي بنوه حول المدينة.

وقبل الغداء بقليل خرج أبو جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر من الغابة واتّجه إلى الثور مباشرةً، ومدّ يديه بشراهةٍ كي يمسك به. فخاف الطحّان أشدّ الخوف لمظهره الغريب وفرّ بأسرع ما يستطيع باحثاً عن مكان يختبئ فيه.

بعد قليل جاء حبّة الخردل والرمّاح لكي يتناولا الغداء وسألا حانقين عن اللحم. فأجاب الطحّان: «لم يبق لحم! لقد أكله جميعاً ذلك المرعب أبو جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر، وقد أخافني مظهره فلم أجرؤ على أن أنبس ببنت شفة».

ولأنَّ الشكوى لم تكن تنفع، فقد اكتفى حبّة الخردل بالقول: «غداً سوف أبقى لأُغنى بالثور، وأنتما تذهبان لحراسة السياج. وسوف أرى إنْ كنا سنبقى دون غداء يوماً ثالثاً».

وفي الغد ذهب الرمّاح والطحّان ليريا إنْ كانت أمور المدينة على ما يرام، وبقي حبّة الخردل ليشوي الثور. وعلى غرار ما جرى في اليومين السابقين، قبل أن يَجْهَزَ الغداء بقليل، ظهر أبو جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر، واتجه إلى اللحم كي يستولي عليه. لكن حبّة الخردل صَدَّه بخشونة، قائلاً: «بقيتُ يومين بلا غداء بسببك، أما الثالث فلا، ما دام رأسي على كتفيّ!».

دُهِشَ أبو جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر كثيراً لهذه الجرأة، وصاح: «احذر ألاّ تنازعني. ما من أحد في الدنيا كلها يقدر أن يهزمني، سوى شخص واحد يدعى حبّة الخردل!».

سُرَّ حبّة الخردل كثيراً لسماع ذلك، ووثب بلا تردّد على أبي جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر، ولم يَدُم الصراع طويلاً حتى طرحه أرضاً وقيّده، ثمّ شدَّ وثاقه إلى شجرة صنوبر طويلة. وحين عاد الرمّاح والطحّان سُرَّا كثيراً لرؤيتهما إنَّ غداءهما بقي سالماً لم يُمسّ. غير أنَّ أبا جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر اقتلع شجرة الصنوبر من جذورها، باندفاعةٍ مباغتةٍ، وهم

في خضم طعامهم، وفرّ بالشجرة، مُخَلّفاً في الأرض شقوقاً كأنَّ محاريث ثلاثة قد فلحت تلك الأرض.

وحين رأى الرمّاح والطحّان ذلك نهضا مسرعين وهرعا خلفه، لكنّ حبّة الخردل ناداهما وطلب منهما إن ينهيا غداءهما أولاً، لأنَّ هنالك ما يكفي من الوقت للإمساك به بعد الغداء! هكذا واصل الثلاثة طعامهم، وحين انتهوا تتبعوا الشقوق التي خلّفها في الأرض أبو جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر، إلى أن انتهوا إلى حفرة عميقة مظلمة، وحين فتشوا حولها وحاولوا أن يروا ما فيها و لم يُفْلِحوا بسبب الظلمة، عادوا إلى الملك وطلبوا منه حبلاً قوياً طوله ألف ميل كي ينزلوا الحفرة.

أمر الملك خَدَمه في الحال أن يعطوهم طلبهم، وحين حصلوا على الحبل العظيم عادوا إلى الحفرة. وفي طريق العودة، تباحثوا فيمن سيغامر أولاً بالنزول، واستقرَّ الأمر في النهاية على أن ينزل الرمّاح. غير أنّه جعلهما يقسمان أنهما سيسحبانه ما إنْ يهزّ الحبل.

و لم ينزل الرمّاح قليلاً حتى هزّ الحبل، فسحباه كما وعدا.

عندئذٍ قال الطحّان: «دعوني أنزل». فدلّاه الآخران، لكنه لم تمضِ لحظة أو اثنتان حتى هزّ الحبل هزّاً عنيفاً؛ فسحباه، هو أيضاً.

راح حبّة الخردل يتميّز غيظاً، وصاح: «ما كنت أعتقد أنكما رعديدان يخافان من حفرة مظلمة! دعوني أنزل!». فتركاه ينزل وينزل إلى أن مسّت قدماه أرضاً صلبة. وإذ وجد أنّه وصل القعر، نظر حوله، ورأى أنّه واقف وسط سهل أخضر بالغ الجمال، متعةً للناظرين.

وفي طرفٍ من هذا السهل انتصب قصرٌ فاخرٌ منيف، فاقترب حبّة الخردل ليلقي نظرةً. وبينما كان يمشي في رياض القصر التقى صبيتين، وسألهما إن كانتا ابنتيّ الملك؟ وحين أجابتا أن نَعَم، سألهما عمّا حلّ بالأخت الثالثة؛ فقالت له الأميرتان إنّ أختهما الصغرى في القصر منهمكة في تضميد الجراح التي أُنْزِلَت مؤخّراً بأبي جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر من قِبَل فارس يُدْعى حبّة الخردل.

عندئذ كشف لهما حبّة الخردل من يكون، وأنّه نزل لكي يفكّ أَسْرَهُـن، ويعيدهن إلى الملك، والدهن. وحين سمعت الأميرتان هذه الأخبار الطيبة سُرّتا كثيراً، وأخبرتا حبّة الخردل أين يجد أبا جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر وأختهما. لكنهما حذّرتاه من أن يتعجّل الهجوم على المارد، وأن يعمل بهدوء، فيحاول أولاً أن يستولي على السيف المعلّق على الجدار فوق سريره، لأنّ لهذا السيف قدرة عجيبة على قتل إنسان يبعد

عنه مسير يوم كامل.

حَرِص حبّة الخردل على أن يعمل كما أخبرته الأميرتان. فتسلّل بهدوء شديد إلى الحجرة التي يرقد فيها أبو جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر، وحين دنا من السرير وثب بغتةً واستولى على السيف. وما إن وقعت عينا المارد الجريح على سيفه بين يديّ حبّة الخردل حتى قفز بسرعة وهرع خارج القصر. فلحق به حبّة الخردل لبعض الوقت قبل أن يتذكّر ما قالته الأميرتان عن مزايا السيف العجيبة، وما إن تذكّر ذلك حتى سدّد ضربةً ماضيةً في الهواء كأنّه يشقّ رأس إنسان، فخرّ أبو جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر صريعاً في الحال.

عندئذٍ عاد حبّة الخردل إلى القصر، وراح يعدُّ العدّة لكي يعود إلى العالَم العلوي، ومعه الأميرات الثلاث.

وحين بلغ الموضع حيث تدلّى الحبل أخذ سلّة كبيرة وضَع فيها الأميرة الكبرى وربطها بالحبل، وأعطاها ورقةً، قال فيها إنّه يرسلها إلى الرمّاح، ثمّ أرسل الإشارة التي اتفقوا عليها لسحب الحبل. وهكذا رفع رفيقاه الحبل، وحين عاد ثانيةً بالسلة الفارغة، أرسل حبّة الخردل الأميرة الوسطى، بعد أن أعطاها ورقة، كتب

فيها إنَّ هذه الفتاة للطحّان.

وحين دُلِّيَ الحبل للمرّة الثالثة أرسل الأميرة الصغرى، التي كانت الأجمل بين الثلاث دون منازع. وأعطاها ورقةً تقول إنه سيحتفظ بها لنفسه. وفي اللحظة التي بدأ الرمّاح والطحّان بسحب الحبل أعطت الأميرة حبّة الخردل علبةً صغيرة، وقالت: «افتحها حين تحتاج إلى أيّ شيء!».

وعندما سَحَب الرمّاح والطحّان الأميرة الصغرى، وأبصرا مبلغ حُسنها، عَزَما إن يتركا حبّة الخردل في الحفرة، ويمضيا في الحال إلى قصر الملك، ويريا هناك من يمكنه من بينهما إن ينال الأميرة الصغرى زوجةً له.

انتظر حبّة الخردل لبعض الوقت أن يُدَلّى له الحبل كي يُرْفَع. لكن الحبل لم يظهر. واضطرّ أخيراً أن يعترف لنفسه بأنَّ رفيقيه قد خدعاه وتخلّيا عنه، وإذ رأى أنَّ من العبث أن يظلّ واقفاً في مكانه أكثر من ذلك، مضى لا يعلم أين يمكن للدرب أن تأخذه. وبعد مسير طويل وَصَل إلى شاطئ بحيرة واسعة، وسمع صوت بكاء وصياح. وسرعان ما ظَهَر حَشْدٌ من البشر، كأنهم في حفلة عرس. وبعد أن ألبَسوا صبيةً ثوب الزفاف على شاطئ البحيرة، تركوها وحدها هناك ومضوا.

حين رأى حبّة الخردل أنَّ الفتاة قد تُرِكَت وحيدةً، ولاحظ مبلغ حزنها، مضى إليها، وسألها لماذا تركها أصدقاؤها هناك، وما الذي يحزنها كلّ هذا الحزن؟ فأجابت الفتاة: «في هذه البحيرة تنّين يلتهم في كلّ عام صبيّة. وقد جاء الآن دوري؛ فجلبني شعبنا إلى هذا التنين مثل عروس، وتركوني لكي يلتهمني».

حين سمع حبّة الخردل هذا، طلب منها أن تدعه يرتاح بقربها قليلاً، لأنَّ التعب قد أخذ منه كلّ مأخذ. لكنها أجابت: «أفضل لك أن تفرّ من هنا، يا فارسي الطيب؛ إنْ كان الموت قد كُتِبَ عليّ، فلا حاجة إلى أن تموت أنت أيضاً».

غير أنّ حبّة الخردل قال لها: «لا تقلقي بشأني؛ فقط دعيني أرتح قليلاً بقربك، فقد هدّني التعب. لا يزال أمامي ما يكفي من الوقت كي أفرّ حين يأتي التنين». ولمّا أنهى كلامه جلس قرب الفتاة، ولم يلبث أنْ أغفى. غير أنّه لم يَنَم طويلاً حتى هاج سطح البحيرة، وارتفعت المياه موجاتٍ عالية. وبرز في الحال رأس التنين الذي راح يسبح قاصداً الشاطئ حيث جلست الفتاة، في عزم واضح على أن يلتهمها ما إنْ يصل إليها. راحت الفتاة تبكي بكاءً مريراً، وسقطت دمعة على وجه حبّة الخردل، وأيقظته،

فوثب على عجلٍ، وامتشق سيفه وضَرَب ضربةً واحدةً قويةً قطع بها رأس التنين.

أمسك حبّة الخردل بيد الفتاة وعاد بها إلى المدينة، حيث وجد أنها البنت الوحيدة لملك البلاد. وحين سمع الملك بقتل التنين سُرَّ أعظم السرور، شأنه حين رأى ابنته تعود إليه آمنة سالمة. ولذلك فقد ألحَّ على حبّة الخردل أن يتزوج الأميرة ففعل، وعاش الجميع في سعادةٍ غامرة على مرّ الأيام.

غير أنَّ شوق حبّة الخردل إلى العالم الآخر راح يشتدّ بعد فترةٍ، وصار حزنه يزداد في كلّ يوم. وحين لاحظت زوجته تبدّل مظهره صارت تكثر من سؤاله عمّا أصابه، لكنّه حرص طويلاً على ألاّ يخبرها، فلم يكن يرغب في إزعاجها. بيد أنّه لم يستطع في النهاية أن يحتفظ بسرّه أكثر من ذلك، واعترف للأميرة بما لديه من توق العودة إلى العالم العلويّ. وعلى الرغم من حزن الأميرة الشديد لسماع هذا، فقد وعدت أن ترجو الملك بنفسها أن يأذن له بالذهاب، ما دام يرغب في ذلك كلّ هذه الرغبة. وقد فَعَلَتْ. وحين اعترض الملك، لعدم رغبته في أن يخسر مثل هذا الصهر الصالح، قالت الأميرة: «دعه يذهب؛ لقد أنقذ حياتي، ولماذا نبقيه رغماً عنه؟ سوف يبقى

أولادي الثلاثة سلوى لنا!».

وافق الملك عندئذٍ، وقال: «حسناً؛ ليكن ما يشاء، ما دمت لا تعترضين على ذلك. قولي لمنقذك أن يمضي إلى شاطئ البحيرة، ويقول للطائر العملاق الذي يجده هناك إنَّ الملك يهديه السلام ويرغب في أن يصعد بحامل هذا السلام إلى العالم الآخر».

عادت الأميرة إلى زوجها وأخبرته بما قاله والدها، ثم راحت تُعِدّ بعض لوازم الرحلة. وحين تمَّ ذلك، وأرسل الملك الرسالة إلى الطائر، استأذن حبّة الخردل زوجته، ومضى إلى شاطئ البحيرة، حيث رأى عشّ الطائر العملاق وصغارها فيه، أمّا هي فلم تكن هناك، فجلس ينتظرها تحت الشجرة التي فيها العشّ. وبينما هو جالسٌ هناك، سمع العصافير الصّغار تزقزق بقلقٍ واضطراب. ثم رأى أن أمواج البحيرة راحت تعلو، وسرعان ما برز وحش من المياه واتّجه إلى العشّ كي يلتهم العصافير الصغار.

غير أنّ حبّة الخردل لم يُطِل التفكير في الأمر، بل سارع إلى سحب سيفه العجيب وقتل الوحش. وصادف أنَّ الطائر العملاق كانت عائدةً في ذلك الوقت، وحين رأت حبّة الخردل تحت الشجرة، صَرَخَتْ وهي تسارع إلى قتله: «لقد أمسكتُ بك، أنت من قتل صغاري على مدى سنين طويلة! سوف تدفع الآن

ثمن ذلك، سوف أقتلك!» لكن العصافير الصغار صرخوا لها من عشّهم في أعلى الشجرة: «لا تؤذه! لقد أنقذنا من الوحش الذي خرج من البحيرة كي يقتلنا».

عندئذٍ مضى حبّة الخردل إليها، وقدّم لها رسالة الملك. وحين قرأتها بتمعّن، قالت له: «عُدْ إلى البيت واقتل اثني عشر خروفاً. واملأ جلودها بالماء، واجلبها إلى هنا، مع اللحم».

عاد حبّة الخردل إلى الملك، الذي أمر في الحال بتزويده بلحم اثني عشر خروفاً، وكذلك بجلودها، وقد امتلأت ماءً قراحاً، فرجع حبّة الخردل بهذه المؤونة إلى شاطئ البحيرة.

وضعتِ الطائر العملاق الجلود الاثنى عشر الممتلئة بالماء تحت جناحها الأيسر، ولحم الخرفان الاثنى عشر تحت جناحها الأيمن، وأخذت حبّة الخردل على ظهرها. وقالت له إنَّ عليه أن يراقب جيداً حركاتها، فإذا ما حوّلت منقارها إلى الجهة اليسرى، أعطاها ماءً، وإذا ما حوّلت منقارها إلى الجهة اليمنى، أعطاها لحماً. وبعد أن ألْقَت على مسامع حبّة الخردل هذه التوجيهات، ارتفعت في الهواء بحملها الثلاثي، متّجهةً صوب العالم الآخر مباشرةً. وبينما هي طائرة كانت تحوّل منقارها، من حين إلى آخر، ذات الشمال أو ذات اليمين، فيعطيها حبّة الخردل الماء أو اللحم،

كما قالت له أن يفعل. غير أنَّ اللحم نَفَدَ جميعاً، في النهاية. وعندما حوّلت الطائر العملاق منقارها إلى اليمين من جديد، لم يكن لدى حبّة الخردل مزيداً من اللحم يعطيها إيّاه، وخشي أن يقع شرٌّ ما إن هو لم يُرْضِها، فأخذ سكّينه، وقطع قطعة من لحم أخمص قدمه اليمنى، وأعطاها لها.

غير أنَّ أنثى الطائر أدركت من طَعْم اللحم أنّه قد اقتطعه من قدمه، فلم تبتلعه، بل أخفته تحت لسانها، وأَبْقَتْهُ هناك إلى أن بَلَغَتْ العا لم الآخر.

عندئذٍ حطّت بحبّة الخردل على الأرض وطلبت منه أن يسير، وحين حاول أن يفعل ذلك اضطرَّ أن يعرج، لفقدانه جزءاً من قدمه. وحين لاحظت أنثى الطائر العملاقة ذلك، سألته: «لماذا تعرج على هذا النحو؟» فأجابها: آهٍ، ليس الأمر مهمّاً! لا تشغلي بالك!». لكنها طلبت منه أن يرفع قدمه اليمنى، وحين رفعها، أخذت قطعة اللحم التي أخفتها تحت لسانها، وأعادتها إلى حيث كانت ثمّ نقرتها بمنقارها نقرتين أو ثلاثاً كي تلتصق بالقدم.

مشى حبّة الخردل بعض الوقت قبل أن يتذكّر العلبة الصغيرة التي أعطته إياها صغرى بنات الملك. وعندما فتحها خرجت

منها نحلةٌ وذبابة وسألتاه عمّا يريد. فقال: «أريد حصاناً يحملني إلى مقرّ إقامة الملك، وبَدْلَةً أنيقة ألبسها». وفي غمضة عين كانت أمامه بدلة فاخرة، وحصان رائع جاهز كي يمتطيه. فارتدى البدلة واعتلى صهوة الحصان، وقَصَد المدينة حيث يقيم الملك. غير أنّه قبل أن يدخل المدينة، فتح علبته الصغيرة، وقال للذبابة والنحلة: «لم تَعُد بي الآن حاجة للحصان». فأخذتاه معهما إلى علبتهما الصغيرة.

نزل حبّة الخردل في بيت عجوزٍ من عجائز المدينة. وفي الصباح سمع المنادي يصيح في الشوارع: «هل من أحد لديه من الجرأة ما يكفي لمنازلة الرمّاح الجبّار، صهر الملك؟»».

سُرَّ حبّة الخردل كثيراً لسماعه هذا التحدي، وفتح علبته دون تأخير، وقال للنحلة والذبابة، اللتين خرجتا تتلقيان أوامره، إنه يريد بذْلةً أنيقة وفرساً قويةً، كي يخرج لمقارعة الرمّاح. وفي الحال لبّت النحلة والذبابة طلبته، فلبِسَ البدلة وامتطى الفرس وقصد الميدان، حيث وجد الرمّاح المتغطرس منتظراً من يجرؤ على قبول تحدّيه.

تبارز حبّة الخردل والرمّاح، ولم يَطُل الوقت حتى صُرِع صهر الملك الأول. عندئذٍ هُرِع حبّة الخردل عائداً إلى البيت،

وفتح العلبة، وأمر النحلة والذبابة أن تأخذا الفرس والبدلة.

بحث الملك في كلّ مكان عن الغريب الذي قتل صهره، لكن أحداً لم يكن يعرف شيئاً عنه. ولذلك، خرج منادي المدينة بعد بضعة أيام، معلناً أنّ الطحّان، صهر الملك الثاني، سوف يبارز من يجرؤ على لقائه.

أخرج حبّة الخردل نحلته وذبابته من جديد، وطلب فرساً أقوى وبدلةً أفخر مما سبق، فأحضرتا له بدلة رائعةً، وفَرَساً سوداء فاحمة بالغة الجمال، فمضى بهما إلى الميدان للقاء الطحّان. فتبارزا، لكن حبّة الخردل سرعان ما صرع صهر الملك الثاني، ومضى من جديد إلى حيث ينزل، وأَمَر النحلة والذبابة بأن تأخذا الحصان والبدلة معهما في العلبة الصغيرة.

عندئذٍ، لم يتحيّر الملك وحده، بل تحيّر معه الشعب جميعاً في أمر الفارس المقتدر، الذي قتل صهري الملك الصنديدين. فجرى بحث دقيق، وطُلِبَ هذا الفارس في كلّ مكان. لكن أحداً لم يكن يعلم شيئاً عنه. أمّا الأفراس التي ركبها، والبدلات التي ارتداها، فلم يُعْثَر لها على أثر في المملكة كلّها.

مرّ بعض الوقت على مقتل صهري الملك، وبدأ الشعب يهدأ

بعض الشيء ويهجر كلّ أمل في معرفة من يكون ذلك الفارس القوي. عندئذٍ كتب حبّة الخردل رسالةً إلى صغرى بنات الملك، وأرسلها إليها مع العجوز التي كان يعيش في منزلها. وروى للأميرة في الرسالة كلّ ما جرى له منذ أن أرسلها في السلّة إلى رفيقيه المنافقين، وأخبرها أيضاً بأنّه هو الذي قتل هذين الخائنين في مبارزة عادلة.

وما إن قرأت الأميرة الشابة الرسالة حتى هرعت إلى والدها ورجته أن يصفح عن حبّة الخردل. ورأى الملك أنّ من الإنصاف أن يصنع لها هذا المعروف، لأنّ القتيلين كانا قد خدعا صديقهما وتخليا عنه، مع أنّ شجاعته الفائقة وحدها هي التي مكّنتهما من أن يصاهرا الملك، لأنّ الأميرات الثلاث، لولا حبّة الخردل، كنّ سيبقين في العالم الآخر حيث أخذهن أبو جبهة ارتفاعها ياردة ولحية طولها شبر.

وبعد أن قلّب الملك الأمر في رأسه، قال لابنته إنّه يصفح عن حبّة الخردل من كلّ قلبه، وإنّ بمقدورها أن تدعوه إلى القصر. وهذا ما فعلته الأميرة في الحال. فحضر حبّة الخردل على الفور بين يدي الملك في كسوةٍ فاخرة، واستُقْبِل بحفاوةٍ بالغة.

ولم يَطُل الأمر حتى احتُفِل بزواج حبّة الخردل من الأميرة

الجميلة، صغرى بنات الملك، وسط أفراح عامرة، وأقاما في بيتٍ جميلٍ بناه لهما الملك قرب قصره.

هناك عاش حبّة الخردل وأميرته في هناء مديد، ولم تَعُد بهِ رغبةٌ قطّ في أن يجوب الدنيا مرّةً أخرى.



المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة


ISBN 978-9948-01-363-1



